عودة إلى بقايا الأطلال: الذاكرة والذاكرة المولّدة والتاريخ الحي في فلسطين / Return to Half-Ruins: Memory, Postmemory, and Living History in Palestine
Author(s): ليلى أبو لغد, حسام ناير, Lila Abu-Lughod and Hosam Nayil
Source: *Alif: Journal of Comparative Poetics*, No. 30, Trauma and Memory / الفجيعة والذاكرة‎ (2010), pp. 217-249
Published by: Department of English and Comparative Literature, American University in Cairo
Stable URL: https://www.jstor.org/stable/27929865
Accessed: 02-01-2026 16:10 UTC

JSTOR is a not-for-profit service that helps scholars, researchers, and students discover, use, and build upon a wide range of content in a trusted digital archive. We use information technology and tools to increase productivity and facilitate new forms of scholarship. For more information about JSTOR, please contact support@jstor.org.

Your use of the JSTOR archive indicates your acceptance of the Terms & Conditions of Use, available at https://about.jstor.org/terms

Department of English and Comparative Literature, American University in Cairo is collaborating with JSTOR to digitize, preserve and extend access to *Alif: Journal of Comparative Poetics*

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

عودة إلى بقايا الأطلال:
الذاكرة والذاكرة المولّدة والتاريخ الحي في فلسطين

ليلى أبو لغد
(ترجمة حسام نايل)

تعني **العودةُ** في السياق الفلسطيني الرجوعَ إلى الوطن السليب. ويثير هذا التعبير المشحون، عند الفلسطينيين المشتتين، حنيناً إلى أرض الوطن التي أجبروا على الرحيل عنها في ١٩٤٨. كما يثير رغبة في التخلص من تجربة الشتات الصادمة التي فرقت العائلات وقطعت سبل العيش، واضطرت الفلسطينيين إلى الإقامة في مخيمات اللاجئين المذلّة، أو إلى مغامرات فردية حتى يقيموا حيواتهم من جديد متسلحين بما لا يكاد يتجاوز شهادات ميلادهم ومفاتيح بيوتهم التي تركوها خلفهم، موصومين بفقد بلدهم – بطريقة ما – على أيدي أناس غرباء. ويُعَدُّ الإصرار السياسي على «حق العودة» مطالبة بتصحيح خطأ أخلاقي. كما يُعَدُّ، أيضاً، مطالبة بعدم محو قصة هذا الطرد.

وبطبيعة الحال، لم يرحل كل فلسطيني عن فلسطين في ١٩٤٨؛ بل ظلّ بعضهم في الأراضي التي وقعت تحت السيطرة التوسعية المطردة للدولة الإسرائيلية التي أُعلنت في ١٥ مايو، ١٩٤٨، تشبثوا بقراهم أو أقاموا بالقرب منها، أو ظلوا في مدنهم، يرقبون عالمهم وهو يتحول أمام أعينهم. عاشوا في المكان على المستوى الفيزيقي، مطرودين على المستوى الاجتماعي والسياسي، تعلموا لغة مستعمريهم وعملوا بينهم في أعمال حقيرة معظم الوقت. أما الذين رحلوا إلى مدن الضفة الغربية أو غزة، فلم يخضعوا مباشرة للحكم العسكري والإداري الإسرائيلي إلا بعد عشرين سنة، عندما احتلت إسرائيل الأجزاء المتبقية من فلسطين التاريخية بعد حرب ١٩٦٧.

ولكن معظم اللاجئين الفلسطينيين وجدوا أنفسَهم مقتلعين من وطنهم وماضيهم. فحاولوا إقامة حيوات جديدة في بلاد مختلفة، في

تشكر **ألف** ليلى أبو لغد وأحمد سعدي لسماحهما بترجمة ونشر هذا الفصل:
Lila Abu-Lughod, "Return to Half-Ruins: Memory, Postmemory, and Living History in Palestine." *Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*. Eds. Ahmad Sa'di and Lila Abu-Lughod. NY: Columbia UP, 2007. 77-104. Translated with permission.

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

لبنان والأردن وسوريا والعراق والكويت والولايات المتحدة وانجلترا، بل وفي دول أمريكا الجنوبية. نجح بعضهم نجاحاً اقتصادياً وثقافياً، أما الكثير ممن ينتمون إلى الأجيال اللاحقة فظلوا يعيشون في مخيمات اللاجئين التي صارت – بشكل مقلق – إقامة دائمة، وقد تجمدت في مخيلتهم ذكريات الوطن.

ظلّ والدي حتى عام ١٩٩١ أحد هؤلاء المطرودين الذين لم يتمكنوا من العودة لرؤية ما حدث لبلدهم. رحلت عائلة والدي إلى الأردن، ومن هناك اقترض مالاً حتى يستقل سفينة راحلة إلى الولايات المتحدة، بحثاً عن التعليم. وهناك، أقام حياته، عمل ليدفع مصاريف الدراسة وتزوج أمي وأنجب أطفالاً، ثم ذهب إلى جامعة برنستون – في نهاية المطاف – للحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ العربي. وبعد مرور ثماني سنوات على خروجه تمكن من القيام برحلته الأولى إلى العالم العربي ليشغل وظيفة تابعة لليونسكو في مصر، غير أنه لم يتمكن من العودة إلى فلسطين. وعلمت من أمي أن عائلتنا قامت بزيارات متقطعة إلى الضفة الغربية والقدس. ومن هناك، كان والدي يحدق باشتياق إلى الجانب الآخر من فلسطين: ساحل يافا. ولكن بعد احتلال إسرائيل هذه المناطق في ١٩٦٧، صار ما كان يفعله مستحيلاً. ثم بعد أن حصل والدي على جواز سفر أمريكي – وكان ذلك في وقت متأخر – يعطيه حق الدخول، بوصفه سائحاً، فيما صار يُعرف الآن بإسرائيل، ظل واحداً من الفلسطينيين الذين رفضوا الذهاب إلى وطنهم السابق ورؤيته. كان والدي يكتب دون كلل عن فلسطين، ويلقي محاضرات عامة عنها، ويدرِّس تاريخها. وقد ذهب مرتين إلى بيروت للإقامة حتى يباشر من هناك مشروعات فلسطينية. وفي عام ١٩٨٢، طرده الجيش الإسرائيلي للمرة الثانية في حياته، وهي تجربة جعلته مكتئباً – وبعيداً بعداً نفسياً عنّا، عن عائلته – لبضع سنوات. فلم يكن يتخيل وضْعَ نفسه تحت رحمة وسلطة الدولة التي أغارت على بلده كلها، لم يكن يتخيل أن يقف وجهاً لوجه أمام أناس يواصلون تدمير أسلوب الحياة اليومية للفلسطينيين الذين يعيشون هناك، وأولئك الذين يعيشون في أماكن أخرى. أما الجيش الذي ألقى قنبلة عنقودية على شرفته في بيروت فقد حطم حلمه بإقامة جامعة فلسطينية مفتوحة والكثير من أحلامه الأخرى.

ثم حدث تغير؛ إذ بعد تعافيه من مرض ألمَّ به أدرك أنه قد يموت دون رؤية فلسطين مرة أخرى. ومع إدراكه لحدوث تغير طفيف في السياسات، مما يعني تخفيف القيود في الأراضي المحتلة، قرر الذهاب إليها. وأتذكر كيف كنت أستمع إلى حكاياته المثيرة حين عاد.

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

وكان في زيارته الأولى عام ١٩٩١ متوتراً، على الرغم من الفضول الذي كان يغشاه. قال إن صدمته الأولى عاناها عند وصوله إلى مطار اللّد حين فاجأته لافتة ترحيب تقول: «أهلاً بكم في إسرائيل». ومع ذلك كان مبتهجاً. بعد هذه الزيارة، جاء قراره عام ١٩٩٢ بـ«العودة» والرجوع. كان قد انفصل عن أمي بالطلاق في وقت سابق، وكان قد تقاعد من جامعة نورثويسترن التي كان يدرِّس فيها العلوم السياسية لمدة خمسة وعشرين عاماً. وحين جاء إلى زيارتي في إنجلترا، بعد أن وضعت توأماً، رأيت أن إحساسه بموطنه قد أفعمه بالحيوية. ثم بعد هذه الزيارة بوقت طويل، وبينما كنت أراجع أوراق مؤتمر غير مؤرخة كدَّسها فوق مكتبه، وجدت تعليقه الآتي: «معظم الناس الذين تحدثتُ معهم [ممن عادوا] يشعرون بالحزن أو الفقدان. أما أنا فأشعر بالعكس تماماً. كنت سعيداً لأني ارتبطت بأرضي من جديد، ولأني عرفت – مع التغيرات التي طرأت – أن الكثير من الثقافة الفلسطينية قد استمر حياً على الرغم من العدوان الإسرائيلي، بفضل المجهودات الكبيرة التي بذلها الفلسطينيون الذين استمسكوا بأرضهم، سواء أرض ١٩٤٨ أو الضفة الغربية وغزة».(١)

وحين وافقت أن أزوره في إسرائيل/فلسطين، بعد انتقاله إليها بخمسة أشهر، على الرغم من شعوري بالقلق، عرفت أن هذا الانتقال غيرّ من خبرته بحادثة كارثية فاصلة يسميها الفلسطينيون تسمية واضحة هي **النكبة** أو «الفجيعة». رأيت أن والدي نجح في إدخال ذكرياته عن فلسطين، مباشرةً، في الزمن الحاضر؛ لقد غرسها في التاريخ الحي. وكان إدماج الذاكرة في الحاضر التاريخي – على نحو ما فعل والدي – مما أتاح لأولاده اكتساب معرفة وتماهٍ مختلفين أيضاً. وتسعى هذه المقالة إلى استكشاف ما حدث لوالدي وما حدث لي أيضاً بسبب **عودته**. وتطلق ماريان هيرش Marianne Hirsch اسم الذاكرة المولَّدة postmemory على التجربة التي يحيا فيها المرء واقعاً يومياً تظلله ذاكرة عن ماضٍ عاشه الوالدان ينطوي على دلالة أكبر؛ وذلك في سياق تحليلها المرهف لانتقال الذاكرة المفجوعة traumatic memory عبر الأجيال عمَّن بقوا على قيد الحياة بعد كارثة المحرقة (Hirsch، ص ص ٢٢–٢٤). غير أن الموقف الذي تصفه هيرش هو موقف ذكريات الوالدين عن أحداث مرَّا بها وانقضت؛ وقد استنكر العالم هذه الإبادة الجماعية وفظائعها. وفيما يخصني يختلف الموقف، فأنا ابنة شخص عاش أحداث النكبة وتلقيتُها عنه بعد عودته إلى فلسطين؛ فالذاكرة والذاكرة المولَّدة – بالنسبة لي وبالنسبة إلى الفلسطينيين – ينطويان على قيمة تفاعلية خاصة؛ لأن الماضي لم ينقضِ بعدُ.

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

كان والدي راوياً وحكاءً. ولذا، كنا – ونحن أطفال صغار – نعرف دائماً أننا فلسطينيون. وما أتذكره من حكايات عن صباه في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات كان يحمل عبق الحنين، وتمتزج فيه الفكاهة بالأسى. كان صعباً عليَّ أن أتخيل والدي في طفولته، حالي في ذلك من حال آخرين، فقد كان هناك عامل الاختلاف الجذري عن الحياة التي عرفتها من خلال نشأتي في الولايات المتحدة، ولعلي لم أستوعب تلك الحياة [التي عاشها والدي] إلا بشكل غير مباشر من خلال بعض سنوات الطفولة التي قضيتها في مصر والعطلات الصيفية التي كنت أقضيها مع أقاربي في الأردن، ثم بشكل أكثر مباشرة بعد أن أصبحت باحثة أنثروبولوجية وعاشرت المجتمعات العربية معاشرة حميمة. ولطالما أحببت تخيل ذلك الطفل الذي كان يعتريه الفرح بحذاء جديد في أيام العيد؛ فينام وهو يضعه تحت وسادته. وقد غمرني توحد عاطفي مع والدي حين حكى قصته مع «نمرة صفر»؛ إذ كان أبوه يعاقبه بحلاقة رأسه على الزيرو حين يخطئ، فكان والدي يتوسل إلى الحلاق أن يحلق له «نمرة واحد» حتى يجعل شعره أطول قليلاً عند منابت الشعر. ثم اعترتني دهشة من الحكايات الطريفة التي حكاها عن نفسه وهو صبي متدين في سن الحادية عشر والثانية عشر والثالثة عشر من عمره، هذا الأب العلماني الراسخ في علمانيته الذي يستنكر باستمرار «آيات الله» كما يحلو له أن يسميهم – سواء كان هذا «الآية» مسيحياً أم مسلماً أم يهودياً – هذا الأب الذي كان يلتمس لنفسه الأعذار حتى لا يصوم شهر رمضان بحجة أنه «على سفر» دائم: في المنفى،(٢) قال إنه كانت تأخذه الحماسة للتفوق على إخوته ونيل تفضيل والديه فكان يسارع إلى مساعدة الإمام الكسلان فيصعد إلى مئذنة المسجد المجاور لبيتهم في يافا ويرفع الآذان. ومع أن بواعثه على استعراض تقواه الدينية متعددة فقد كانت طريقته في التدين شديدة الذاتية: حكى لنا كيف أنه أمَّ صلاة جنازة إسلامية كاملة على روح طائره الأليف، الهدهد، بعد أن قضى نحبه حين كانوا يقضون عطلة صيفية في النبي روبين.

وقد أعطتنا حكايات والدي عن حنان أبويه ورعايتهما الأخلاقية لمحات عن طبيعة حياة العائلة في فلسطين قبل ١٩٤٨، وعن شخصية أبيه؛ ذلك الجد الذي لم نعرفه إطلاقاً. حكى والدي أنه، وهو طفل صغير، ذهب مرة إلى الحمام في منتصف الليل، وفي الظلام لم يكن يدرك أن والده موجود هناك، فظل والده صامتاً لا يتحرك، وهو الرجل الجليل، حتى لا يرتعب ابنه شبه النائم، مع ما في ذلك من حرج. غير أن والدي حكى، أيضاً، قصة اليوم الذي أرسلته فيه أمه لشراء ملح طعام، وكيف

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

خسر النقود وهو يلعب مقامراً في الشارع. ثم حين عاد إلى البيت متأخراً دون ملح لطعام العشاء، قالت له أمه: «انتظر حتى أخبر أبيك». فكان العقاب الصارم: الحرمان من الخروج في اليوم التالي، وكان يوم العيد الكبير، فقضى والدي يومه يطل من الشباك باكياً، وهو يرقب أصدقاءه وأقاربه يخطرون في الشارع بملابسهم الجديدة، يشترون ما لذَّ وطاب ويستمتعون بعطلة العيد. وكانت هذه الحكاية درساً أخلاقياً لنا أيضاً: لم يقامر والدي مرة أخرى على الإطلاق.

وإلى جانب هذه الحكايات، كان يقص علينا كثيراً من الحكايات السياسية التي بدأنا نتعلم منها معنى أن يكون الإنسان فلسطينياً تحت الانتداب البريطاني. فيما يرى والدي، كان الناس – في ذلك الوقت – واعين بالكاد أنهم على أهبة أحداث كارثية تجعلهم لاجئين. لم يكونوا يدركون أن الصهاينة، وليس البريطانيين، هم الخصوم الحقيقيون. ومرة أخرى، كان من العسير عليَّ تخيل والدي شاباً متمرداً يصطدم بالجيش البريطاني: والدي الأستاذ المتميز الذي يدخن الغليون، والدي المغرم بالحديث في التليفون والذي يجد متعته في اللعب مع الأطفال، والدي الذي يقرأ كل ما تقع عليه عيناه، والدي المفعم بالحيوية وهو يلقي محاضراته العامة (فيقاطعه الصهاينة ليضايقوه بوابل من الأسئلة، الأمر الذي كان يُدرُّ دموعي الحارقة التي يختلط فيها الأذى بالغضب من أجله). وتوجد نسخة من إحدى حكاياته محفوظة على شريط كاسيت، سجلها هشام أحمد فرارجه عام ٢٠٠٠، وقد سجَّل قصة حياة والدي، وإليكم حكاية اعتقاله الأول، وهي حكاية طالما سمعتها منه مراراً:

> كان البريطانيون قد فرضوا حظر التجول، كما يفعل الإسرائيليون الآن. وكنا أطفالاً في سن التاسعة أو العاشرة، وأذكر أننا كنا نلاحق جندياً ونسُبُّه، ثم فجأة اعتقلت دورية بريطانية أخي الأكبر، فساقته إلى قسم الشرطة. وهناك أشبعوه صفعاً، ثم أطلقوا سراحه. كان كل مَن يُعتقل يصبح بطلاً. وكنت أريد أن أكون بطلاً؛ فكنت أتبارى مع أخي الأكبر. ولما رأينا شرطياً يقود دراجته البخارية شتمتُه. فما كان من أولاد الزناة إلا أن جروا ورائي أنا وأصحابي! وكان أن اختفينا في أحد المخابز. شعرت أني في ورطة، فالمخبز مغلق، وكنا قد دخلناه من باب جانبي. جاء أحد الجنود البريطانيين وأمسكنا في حالة تلبس إنْ جاز التعبير، واقفين هناك لا نحرك ساكناً. قبضوا على أربعة منا. وكان الجنود يقودون أربع دراجات بخارية،

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

فجعلونا نجرى أمامهم، وكان معهم سياط. كنت أرتدي جلباباً – وهو ما نلبسه عادة في الشارع – فكان عليَّ أن أرفع أطراف الجلباب وأضعها بين أسناني حتى أتمكن من الجري. شعرنا بالتعب ولكنهم ألهبونا بالسياط حتى نظل نجري. كان الناس ينادوننا من داخل منازلهم: «تعال هنا يا إبراهيم! تعال هنا يا محمد!». غير أننا كنا خائفين من أن يلاحقونا أينما توجهنا، ولهذا ذهبنا معهم.

وكما قال أبي: بعد مزيد من الصراخ، الحقيقي مرة والمفتعل مرة، تركهم البوليس لحال سبيلهم، بعد أن وبَّخهم أحد العملاء من سكان الحيّ، ثم طاردتهم دراجة بخارية أخرى على امتداد طريق العودة، فكان الجندي يلهبهم بالسوط مرة أخرى. ولا بد أن ترى – من خلال الطريقة التي حكى بها والدي القصة – الجانب المضحك الذي تثيره صورة طفل هزيل يصر على منافسة أخيه وهو يجري ممسكاً أطراف جلبابه بأسنانه حتى ينجو بحياته.

وعن المرة الثانية التي قُبض عليه فيها، قال إنه تعلم درساً لن ينساه؛ ففي هذه المرة لم يتركهم البوليس البريطاني لحال سبيلهم، بل جعلهم يعملون، إذ أمرهم أن يرفعوا بأيديهم – والدي وأصحابه – كل الحشائش الموجودة في الفناء الواسع أمام قسم البوليس، كي يصبح ساحة لملعب تنس. وقد حكى لنا هذه القصة في مرحلة متأخرة من حياته على النحو الآتي:

كان هناك ضابط شرطة بريطاني أسميناه **أبو نياب** [شخص له أنياب كبيرة] وقد فهمت الآن، بالكاد، أنه كان سادياً. كنا نخاف منه فهو يروح ويجيء بيننا وفي يده عصا غليظة، كنا نحاول اقتلاع الحشائش فلا تطاوعنا؛ ضربنا وأمرنا بمواصلة العمل. استغرق العمل ساعتين حتى أنهيناه، فما الذي سيفعلونه بنا الآن؟ كان حظر التجول مستمراً. ولذا، طلبوا منا نقل الحشائش من جانب في الحديقة إلى جانب آخر، لمجرد أن نظل نعمل. شعرنا بالتعب الشديد وكانوا يضربوننا باستمرار. ولن أنسى ما حييت وجه أبونياب ابن الكلب الذي أشبعني ضرباً. بدأنا نصرخ فلم نكن نريد أن نُسجن. ما كنا نريده أن نصبح زعماء. وحين أفكر فيما مضى ألعن هذا النوع من الوطنية، أكان لزاماً علينا الضرب والتعذيب حتى نصبح زعماء؟(٣)

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

قال أبي إنه منذ ذلك الحين بدأ يستخدم الوسائل المشروعة – عقله، قلمه، موهبته في الخطابة – في نضاله ضد الاحتلال الاستعماري (الصهيوني الآن وليس البريطاني). وكفى ضرباً.

ولا أذكر، وأنا في طفولتي، استماعي إلى قصصه عن ١٩٤٨ والشهور الأخيرة قبل سقوط يافا، مسقط رأسه. فهل كنا صغاراً إلى درجة أنه لم يكلف نفسه عناء قَصِّها علينا؟ وهل كان كلامه سيعني شيئاً بالنسبة إلى أطفال لم يروا يافا مطلقاً؟ تقول أمي لي إنه حكى هذه القصص لها ولآخرين مرات كثيرة. سمعتها، وأعتقد أنها اكتسبت معنى خاصاً ومزيداً من الاتساق، بعد أن عاد والدي ليعيش في فلسطين وتمكن من رؤية يافا مرة أخرى. وكما يرى موريس هلبفاكس Maurice Halbwachs، تتطلب الذاكرة إطاراً اجتماعياً. ويرى هلبفاكس، أيضاً، أنه كلما كبر الناس سناً وتحرروا من ضرورات الحياة العائلية والمهنية صاروا – في الأغلب – أوصياء حريصين على ماضٍ تتزايد حيويته عندهم. كان والدي ناشطاً في فلسطين، ولم يكن منعزلاً على الإطلاق؛ إذ بمجرد أن انتقل إليها بدأت حكاياته تتدفق. كانت تجارب والدي في ١٩٤٨ هي التي حفزت مساعيه الطويلة في سبيل فهم ما حدث للفلسطينيين ونشره على الناس. لكن الشيء الغريب الذي حدث بعد عودة والدي إلى فلسطين أن ذكرياته أصبحت، الآن، دليلاً إلى تاريخ حي ومكان واقعي.

من الذاكرة إلى التاريخ: التجول في يافا

كانت يافا قلب فلسطين النابض عند والدي. وحين جئت للإقامة معه في ٢٠٠١، رأيت على حائط من حوائط شقته في رام الله، ملصقاً كبيراً ذا لون بني داكن. كان صورة فوتوغرافية تاريخية لرجل عربي ينظر بحنين إلى البحر، وفي الخلفية مدينة كبيرة، وفي أعلى الملصق مكتوب باللغة العربية «يافا ١٩٣٧». ومع هذا، فقد كان والدي يقيم في رام الله وليس في يافا؛ حيث إن المؤسسات الفلسطينية كانت تمارس عملها – على نحو متقطع – في الضفة الغربية طوال عقد التسعينيات. فهناك كان بإمكانه العمل.

وفي أثناء زيارتي الأولى له في فلسطين عام ١٩٩٣، أحسست بالفرحة الغامرة التي كان يشعر بها لتمكنه من السيطرة على الموقف الجديد. ولعل الجانب الطيب أنه تمكن من احتواء المجتمع الذي وجده، كما أن هذا المجتمع احتواه أيضاً، سواء في الضفة الغربية أو في العديد من أجزاء فلسطين قبل ١٩٤٨. أما التوتر فكان يظهر عليه كلما اقتربنا من نقاط تفتيش الجيش الإسرائيلي: كان فمه يجف وقطرات العرق تنز من جبهته، أو يتوه لأنه لا يعرف قراءة اللوحات الإرشادية على الطريق

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

المكتوبة باللغة العبرية، وكان يخشى أن يسأل، وسَرَى خوفه إليَّ، فقد بدا كل شيء من حولي غريباً. أما المناظر فكانت مألوفة لتشابهها مع لبنان والأردن اللتين عرفتهما جيداً بحكم نشأتي. ملأتنا الطرق العمومية والمدن المكتظة بالعبرية بإحساس الخطر، وبصفة خاصة عندما يحتشد فيها الجنود الإسرائيليون وجنود الاحتياط ومعدات القتال بحضورها الثقيل. ومع الوقت، صار والدي معتاداً على ذلك.

كان والدي متلهفاً على أن يرينا، أنا وعائلتي الصغيرة، فلسطين كلها، من القدس إلى بيت لحم، ومن نابلس إلى الناصرة، ومن أريحا إلى عكا. كانت رحلة حافلة بالمشاهد والأصوات والتنقل بالسيارة. وأكاد ألا أتذكر مشاعري حينها ولا أستحضر صوراً من هذه الرحلة؛ فقد كنت حديثة العهد بالأمومة ومنشغلة بتوأمي ذي الخمسة أشهر ونحن في الطريق. غير أني أذكر أن الزيارات التي قمنا بها إلى أصدقائه في أنحاء فلسطين كانت حميمة، تناولنا عندهم أنواعاً من الطعام الطيب. وكما كان عهدي في طفولتي، تملكني شعور بالخجل وانتابني الصمت كلما تحول الكلام إلى حديث السياسة، أو كلما دفنت خوفي من إحراج والدي لأن عربيتي الفلسطينية لم تكن سلسة، شأن العديد منا في الشتات؛ فقد كان من الواضح أني أمريكية. ومع أن الكثير ممن قابلناهم درسوا، أو عملوا، في الولايات المتحدة أو بريطانيا، وقابلونا كلهم بترحاب شديد، فلم أشعر أني منتمية إليهم بالسهولة نفسها التي كان والدي يشعر بها.

كان والدي حريصاً على أن يرينا يافا على الأخص. وكانت جولته معنا فيها هي الجولة نفسها التي قام بها مع آخرين كثيرين، وقد ساءني قليلاً أن أكتشف ذلك فيما بعد. ولعلها تلك هي وسيلته في استرداد المدينة التي ولد فيها، واستعادة البحر الذي سَبَحَ فيه صبياً، والبيت الذي أجبر على الرحيل عنه في ١٩٤٨. في زيارته الأولى عام ١٩٩١، طلب من أصدقائه أن يأخذوه إلى يافا أولاً. شعر في البداية بالارتباك والحيرة؛ فمعظم المعالم التي كان يعرفها لم تكن موجودة. اندثر الحيُّ القريب من البحر حيث ترعرع. ومنذ عشرين عاماً، فعل أخوه ما فعله كثير من الفلسطينيين وتحدثوا عنه: طَرَقَ الباب ليستكشف أيَّ يهود – روس أم مغاربة أم يمنيين أم بولنديين – يعيشون في بيوت عائلتهم القديمة.(٤) وفجأة قال والدي إنه تعرَّف على مسجد حسن بك الذي رفع منه آذان الصلاة وهو صبي، ومن هذا المسجد استطاع أن يتوصل إلى موقع مقهاه الذي كان. لم ينسَ والدي هذا المقهى الذي كان يعتاد التسكع بالقرب منه في الأمسيات، على أمل أن يسترق السمع إلى رواة السير الشعبية، فلم يكن يملك ثمن كوب الشاي حتى يجلس داخل المقهى ويستمع إليهم. وشيئاً فشيئاً، وهو يدور دورات واسعة حول المسجد، بدأ يهتدي إلى طريقه.

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

إحدى طالباته السابقات، وقد صارت أستاذة في حقل سياسة الشرق الأوسط، هي التي جعلته يراجع قراره برفض العودة. كانت تعتاد السفر إلى إسرائيل والضفة الغربية، ويذكر والدي أنها قالت له مرة: «إبراهيم، فلسطين لا تزال موجودة». وقال والدي إنه شعر بالسعادة حين وجد كلامها صحيحاً. في زيارته الأولى، سأل بعض الأطفال العرب في الشارع إنْ كانوا يعرفون شارع الملك فيصل. وفي الحال، أخذه الأطفال إليه، مع أن لافتة الشارع تشير إلى اسم مختلف تماماً. ومن هذه الواقعة، عرف أن الأمهات والآباء الفلسطينيين لا يزالون يعلمون أولادهم الأسماء القديمة للأشياء، حتى وإنْ دُفنت فلسطين ومُحيت من الوجود، حتى وإن أعادت إسرائيل كتابتها من جديد.(٥)

توجد صورة أدبية في إحدى قصص دوريس ليسينج Doris Lessing **حكايات أفريقية** *African Stories* (١٩٨١) لم تفارق مخيلتي. وكنت أكلف طلبتي بقراءة هذه القصة عام ١٩٨٥ في سياق سلسلة محاضرات في مادة «الاستعمار»: مستوطِنة بيضاء، شابة، تعيش في جنوب أفريقيا، تنظر إلى السافانا وأشجار السنط؛ فترى أشجار السنديان كثيفة الأغصان في الحكايات الخرافية الإنجليزية. لقد فعل والدي العكس. إذ بينما كنت لا أرى سوى صدوعات عميقة في منحدرات التلال الخضراء بغرض إقامة مستوطنات إسرائيلية ذات أسطح مطلية باللون الأحمر الصارخ، أو أرى أميالاً وأميالاً من الطرق العمومية التي تتشابك وتتقاطع في الامتدادات الصخرية مستحوذةً عليها عبر لافتات خضراء حديثة مكتوبة بالعبرية والإنجليزية، أو غابات مزروعة بأشجار دائمة الخضرة، غير محلية، تُخفي قرى مندثرة – بينما كنت لا أرى سوى ذلك، كان والدي يتطلع من وراء ذلك، ومن خلاله، إلى المناظر التي ألفها في شبابه.(٦)

قال والدي إنه، وهو صبي، كان يعتاد السفر إلى كل أنحاء فلسطين مع العاملين عند والده في ورشة السباكة، إذ يقومون بتوصيل مضخات المياه ومعاصر الزيتون وتركيبها وصيانتها. اكتشفت فيما بعد أنه سافر أيضاً، وهو طالب في المدرسة الثانوية المُسَيَّسة، محاولاً استقطاب زملائه الطلاب؛ مما كان يقلق أمه قلقاً شديداً كلما شرع في ركوب الأتوبيس، كما حكت لي أمي. بدا من الواضح أن والدي – وهو يقودنا بالسيارة – لا يزال يعرف طريقه في فلسطين، مع أنه كان ممنوعاً من دخولها لأكثر من أربعين سنة، وبرغم أن كل شيء قد بدا مختلفاً. أطلعنا على بساتين البرتقال التي ربما سرق منها برتقالة أو برتقالتين، وهو صغير. (وأنا أربط والدي بالبرتقال بسبب طريقته الودودة، دوماً، في تقشير البرتقال: يأكل بضعة فصوص ثم يوزع البقية على أولاده، وأعرف أنه كان من الصعب عليه رؤية برتقال يافا

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

في السوبر ماركت وعليه بطاقة صغيرة تقول إن منشأه إسرائيل، بينما كان هذا البرتقال جزءاً لا يتجزأ من صباه). ثم أشار إلى نباتات الصبار التي لا تزال تنتصب عنيدة ترسم حدود المناطق العربية التي كانت. ثم يشير إلى نوافذ البيوت العربية القديمة المقوسة التي لم تطلها يد التدمير، والتي تندسُّ بين المباني الجديدة التي غلبت على الضواحي والمدن. كان يبني بقايا الأطلال بخياله، بينما كنت أجهد نفسي حتى أتمثلها بين المباني الأسمنتية [الجديدة] البشعة.

بدأت جولة والدي في يافا بمصنع صغير أنشأه أبوه في ضواحي المدينة عام ١٩٢٩. ولا يزال يذكر إلى الآن حارس هذا المصنع؛ كان رجلاً أفغانياً لطيفاً ذا شارب أبيض كبير، كان يخلب ألبابهم وهم أطفال حين يقرأ كفَّ كل منهم. قال لنا والدي إن هذا الرجل كان يتمتع بالقدرة على قراءة المستقبل فأخبرهم أنهم سيضطرون كلهم إلى مغادرة يافا، أما هو نفسه – الرجل الأفغاني – فلن يغادرها. قال والدي إن الرجل الأفغاني لم يغادرها حقاً؛ فقد صدمته سيارة قبل أحداث ١٩٤٨. وشعرت أن والدي عدَّه رجلاً محظوظاً.

ركنَّا السيارة بعد أن عبرنا الشارع المزدحم إلى جانبه الآخر، عند سبيل أبي نبوت، وأشار إلى مصنع يبدو متهالكاً، كان على أيامه شركة فلسطينية محدودة للمسبوكات النحاسية والحديدية، لا يزال اسمها محفوراً على بالوعات مياه المجاري في يافا إلى يومنا هذا. وشرح لنا وهو يمتليء بمشاعر الفخر أن هذا المسبك كان يخدم المزارعين الفلسطينيين؛ يصنع لهم مضخات الديزل والمعاصر والمكابس التي يحتاجها الفلاحون لبساتين البرتقال والزيتون. لقد تعلم أبوه، في البداية، المهنة على يد بعض الألمان الذين رحلوا عن فلسطين حين استولى البريطانيون على مصنعهم أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم استمر في العمل مع اليهود الألمان. بعد ذلك، قرر أن ينشئ شركته الخاصة مع الأقارب بوصفهم مساهمين فيها، خمسة جنيهات من هنا وخمسة من هناك وتأسست الشركة. ثم شرح لنا أنه بهذه الطريقة تمكن العرب من ألا يتكلوا على مصنع أجنبي أو يهودي. وعلى مدى عشرين سنة، هي عمر المصنع، أغلقه البريطانيون عدة مرات. ففي وقت التمرد الفلسطيني عامي ١٩٣٦–١٩٣٧، اتهم الإنجليزُ أباه بتصنيع الأسلحة سراً. فهمتُ بعد ذلك أن الوطنية سَرَتْ شعلتها في العائلة. وذات مرة، حين أغلقوا مصنعه بالشمع الأحمر، نقل أبوه سراً كل الآلات؛ هرَّبها قطعة قطعة عبر بساتين البرتقال خلف المصنع، ثم حملها على عربات الكارو إلى مكان جديد.

أوقعتهم نشاطات جدي الوطنية في المتاعب. ويذكر والدي اقتحامات رجال الشرطة والعساكر البريطانيين الليلية لمنزلهم. كان لهذا

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

الموقف وقع سريالي عليَّ وأنا أستحضر المشاهد العنيفة التي يصعب أن تتجاوب مع ما أعرفه عن والدي: الرجل الذي يركب الدراجة، ويقرأ الكتب، ويعتني بحديقة منزلنا في الضواحي، ويحاضر بأسلوب يفتن مستمعيه. كان البريطانيون يدخلون المنزل صاخبين، آمرين كل واحد أن يرفع يديه إلى أعلى، ثم يتوجهون رأساً إلى المطبخ ليفتشوا أجولة الدقيق والأرز بحثاً عن أسلحة. كان والدي وإخوته قد تعلموا من قبل أن يقدموا ضيوفهم الريفيين الذين يتسترون عليهم بوصفهم أولاد عم. كما اكتشفوا مبكراً أيضاً مَن يمكن أن يرتشي من المحامين وحراس السجن البريطاني لتهريب الطعام والأغطية لأبيهم. مات جدي عام ١٩٤٤، بعد أن تناوبته الاعتقالات كثيراً، ولم يكن عمر والدي قد تجاوز الخامسة عشر. ومع ذلك، استمر المصنع في الإنتاج حتى انهار كل شيء مع حرب ١٩٤٨.

وكانت المحطة الأكثر أهمية التي توقفنا عندها، في جولتنا في يافا، هي مدرسة والدي الثانوية، المدرسة التي قال عنها بسخرية مريرة إنها علمته جغرافية إنجلترا، إلى درجة أنه حين وطأت قدمه أرض لندن – بعد ذلك بسنوات عديدة – كان يعرف اسم كل شارع فيها. قال إنه في هذه المدرسة تعلم كيف يستخدم عقله، وبخاصة حين قام المدرسون بتسييسه. أما الآن فتحمل المدرسة لافتة صغيرة خارجها تشير إلى أن اسمها «مدرسة وايزمان»، ويحيطها سور من القضبان الحديدية. كانت على أيامه تُسمّى «المدرسة العامرية الحكومية الثانوية». كان والدي مغرماً بالحديث عن ذهابه – ذات مرة – مع مجموعة من الضيوف لمشاهدتها، فوجدوا شباباً أثيوبياً من المستوطنين حرَّاساً عليها، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن التاريخ إلى درجة أنهم لم يصدقوا أن والدي لا يتحدث العبرية حين أخبرهم أن هذه كانت مدرسته يوماً ما. وأثناء جولاته، كان يلقي نظرة فاحصة سريعة على البوابة، ويحاول مراودة حارسها حتى يدخل. نجح – ذات مرة – حين كان بصحبته بعض الأصدقاء من الولايات المتحدة، فكان عليهم أن يتركوا جوازات سفرهم الأمريكية مع الحارس. وأخذته الدهشة من أن كل شيء داخل المدرسة كان على حاله، باستثناء أن الأطفال اليهود رسموا رسومات على حوائطها الداخلية. صارت المدرسة، الآن، من مدارس التعليم المختلط بين الجنسين. أما عندما كانوا طلاباً فيها فكان عليهم أن يتسلقوا الحائط ليروا بنات مدرسة «الزهراء».

ولأن يافا كانت مدينة تجارية غير متجانسة، فلم يكن لديه زملاء ينتمون إلى عائلات عريقة. كان هو وأصحابه تواقين إلى التعلم والتحقق والإنجاز. صار بعض هؤلاء الأصحاب من أصدقاء العائلة الآن: رجائي بُصيلة، الشاعر الكفيف، وأستاذ الأدب الإنجليزي، الذي عاش في كوكومو في ولاية إنديانا؛ وشفيق الحوت الكاتب الذكي

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

المفعم بالحس الذي أصبح، فيما بعد، مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت. ولا يزال جميعهم يذكر المدرسين الذين علموهم تعليماً رفيعاً طبقاً لمواصفات عالية، إلى درجة أن والدي حين نجح في الذهاب إلى أمريكا وبدأ دراسته الجامعية أعفوه من اجتياز مقررات الجغرافيا والتاريخ الأوروبي. وعن هؤلاء المدرسين، قال والدي في لقاء أجري معه وقرأته، إنهم تعلموا على أيديهم، أيضاً، الفرق بين كسر قواعد المدرسة والانشغال بالعمل السياسي. كان المدرسون يقضون الوقت معهم في فناء المدرسة يجيبون عن تساؤلاتهم بشأن الإمبريالية، ويبتسمون حين يعتصمون وينظمون المظاهرات ويؤسسون اتحاد الطلبة الفلسطيني. كان هؤلاء المدرسون يدرِّسون الكيمياء والتاريخ، ويختلفون عن المعلمين الذين عرفتهم – أنا ابنته – في مدرستي الثانوية (Ahmed-Fararjeh، ص ص ٣٧–٤١).

حين عاد والدي بتفكيره إلى عامه الأخير هناك، عام ١٩٤٨، لم يكن يصدق ما حدث. كان الإنجليز يعرفون أنه ستوجد مشكلة حين ينسحبون في مايو، فأعلنوا أن امتحانات السنة النهائية سيتم تقديمها إلى شهر مارس. بذل والدي وأصحابه ما في وسعهم في المذاكرة والتحصيل، بينما الحرب دائرة في أنحاء البلاد، وعلى وجه التحديد بين يافا وتل أبيب. بعد نهاية اليوم الدراسي، كان يخرج هو وأصحابه للمساعدة، ولكنهم يقولون لأمهاتهم إنهم ذاهبون للمذاكرة معاً. قال والدي إن الطلاب كان منوطاً بهم نقاط التفتيش، فهم يعرفون الإنجليزية ويستطيعون التمييز بين الإنجليز وبين المقاتلين المهاجرين اليهود. ولكنهم لم يكونوا على دراية بأي شيء. ولم يخيل لهم أن حياتهم ستتغير تغيراً جذرياً في القريب العاجل، فقد كان همهم الأساسي اجتياز امتحانات نهاية العام، وظنوا أن مستقبلهم يتوقف على ذلك. وحين فَقَدَ شفيق – صديق والدي الحميم – أخاه، طلب والدي منه بإصرار أن يستغني عن طقوس الجنازة حتى يجتاز امتحاناته. ولما جاءوا إلى المدرسة التي تُعقد فيها امتحانات القبول بالجامعة في فلسطين، وجلسوا إلى مقاعدهم، اكتشفوا أن سطح المدرسة قد نُسف. أتمّوا امتحاناتهم على هذه الحال. وبعد الانتهاء من الامتحانات بعدة شهور، سمعوا النتائج في الراديو، وقد أذاعتها وزارة التربية والتعليم اليهودية، إذ لم يعد هناك وزارة تعليم عربية. في ذلك الوقت، كان والدي لاجئاً في نابلس بالضفة الغربية، وكان على وشك الرحيل إلى عَمَّان. أرسل تلغرافاً إلى شفيق – وكان لاجئاً في بيروت – ذكر فيه هذه المفارقة: «يا له من واقع مثير: اجتزنا الامتحانات! ونحن الآن لاجئون بلا مستقبل».

أخذتنا جولة والدي في يافا إلى شارع به مكتب بريد كولونيالي (حيث حاول والدي بلا طائل أن يسترجع صندوق بريده القديم، لا لشيء

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

سوى أن يشعر بالسعادة من إمكان ورود خطابات بريد مرسلة إلى يافا)، وإلى المحاكم القضائية التي كان يحلم بممارسة المحاماة فيها، متخذاً من يوسف وهبي نموذجاً، وهو النجم الذي كان يتمتع بالقدرة على استمالة الناس إلى موقفه بحسن بيانه في الأفلام المصرية. كما أخذتنا الجولة إلى محل البوظة الذي كان يذهب إليه مع أصحابه، في فترة المراهقة، لمغازلة العاملة الأوروبية فيه أكثر من تناول البوظة. لم يكن من المألوف بالنسبة لهم رؤية فتيات يعملن، مع أن الفتيات في حيِّهم، والسيدات في الحي المسيحي، يخرجن سافرات. تعبق هذه المباني بمعانٍ بالنسبة إلى والدي، يغمض إدراكُها عليَّ؛ فما كنت أرى سوى مبانٍ كولونياليَّة بدت أليفة إلى حد ما لوجود أمثالها في مناطق أخرى من الشرق الأوسط؛ حيث أنشأها البريطانيون والفرنسيون من أجل الحكم. وكان عندي تجاوب عاطفي مع هذه المباني في مصر حيث كنت أشعر بالراحة والاطمئنان. أما هنا فشعرت بالغربة، وذكريات والدي لم تكن الذكريات التي تؤثر فيَّ بسهولة، ربما لأنها ذكريات مشحونة بالهزيمة والعداء.

وأثناء الجولة، رأينا عمارة سكنية غير متميزة، كانت آخر مكان عاش فيه والدي. يافا وتل أبيب متجاورتان، ومع ازدياد حدة التوترات السياسية بينهما في غضون الأربعينيات انقسمتا إلى معسكرين، الأول للعرب والثاني لليهود. وفي شتاء عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨، دار القتال بالقرب من الحدود بينهما. وكما شرح لنا والدي، صارت المنطقة المجاورة له شديدة الخطر فجأة، تطولها قذائف مدافع الهاون وطلقات الأسلحة النارية؛ فلاذت عائلته بابن عم لها يعيش في وسط المدينة. وبعد مرور أسبوعين، أدركوا أن القتال سيستمر أطول من المتوقع، وأنهم لن يتمكنوا من الرجوع إلى بيتهم في وقت قريب. وعندما نسفت عصابتا الإرجون Irgun والهاجانا Hagana بيتَ العدل غير البعيد عن منزل ابن عمهم، فقتلوا ستين شاباً ممن يرعاهم قسم الشئون الاجتماعية، وكان بصحبتهم لاعب كرة ذو شعبية ضمن المسئولين عن هؤلاء الشباب، حينئذ اعتقد والدي أنه من الأفضل انتقال العائلة إلى منطقة أخرى مجاورة. وعن هذا الحادث الأليم، يصر المؤرخون الإسرائيليون على الزعم بأن الهدف من القصف كان مقرات قيادة اللجنة الوطنية، ويؤكد والدي – الأكاديمي المؤرخ صاحب المعرفة الموسوعية ومكتبة ضخمة عن النزاع الفلسطيني الإسرائيلي – أن الهدف لم يكن في حقيقة الأمر هذا؛ لأن اللجنة الوطنية كانت قد انتقلت قبل ذلك بأسبوعين. يؤكد والدي أن الهدف كان إرهاب أهل يافا، وقد تحقق الهدف.

في الكتاب الذي حرره والدي عام ١٩٧١ تحت عنوان **تحولات فلسطين** *The Transformation of Palestine*، نشر فيه مقالة إرسكين تشايلدرز

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

Erskine Childers، وهو صحفي إيرلندي متميز، يصف الأمل الصهيوني – منذ أوائل القرن العشرين – في أن يختفي الفلسطينيون بأنه «أمنية مكنونة». واستناداً إلى مصادر وثائقية تتألف من إذاعات راديو صهيونية وبريطانية وعربية، يصف تشايلدرز ما حدث في يافا في الأسابيع السابقة مباشرة على الغارة. وقد صدمني الوصف حين قرأته للمرة الأولى. كان من الصعب عليَّ تخيل أن والدي وعائلته قد عاشا هذه الأحداث. ولم تحدثني جدتي عن ذلك أبداً، فحكاياتها لي عن الماضي كانت عن ليلة زفافها، وشذرات عن السحر والحياة اليومية في فلسطين، لا غير. بدأ الهجوم، فيما يروي شيلدرز، يوم ٢٥ أبريل بوحدات من الإرجون السرية تبعتها وحدات من الهاجانا الرسمية. ومع أن يافا لم تكن ضمن نصيب اليهود في قرار الأمم المتحدة بالتقسيم، فإنهم قذفوها بمدافع هاون ٣ بوصة، ولم يكن التصويب محكماً، غير أنه أحدث دماراً نفسياً. كانت يافا في مجال توجيه قنابل برميلية، وقد وصف ذلك ضابط احتياط إسرائيلي لمجلة سلاح البحرية الأمريكية المتخصصة، قائلاً إنها صُمِّمت خصيصاً لضرب المدن العربية، وكانت القنابل تتألف من «مواسير، أسطوانات خشبية أو معدنية محشوة بخليط من المتفجرات والبنزين، مزودة بإطارين من المطاط وتحتوي على فتيل تفجير»، ثم تُدَحْرَجُ في الشوارع حتى ترتطم بالحوائط ومداخل البيوت، فتنفجر قاذفةً اللهب بطريقة تتزايد تسلسلياً (Childers، ص ١٨٧). كما كان يُستخدم في إرهاب أهل يافا نفسياً عربات مزودة بمكبرات صوت تبثُّ «أصواتاً مرعبة»، كان قد تم تسجيلها من قبل، عبارة عن صرخات نساء وعويل وندب، وصفارات وأجراس ونداءات تحذيرية باللغة العربية، كي يجرى أهل يافا فينجون بحياتهم (Childers، ص ١٨٨) كما كانت النداءات تذكرهم بمذبحة دير ياسين. وأثناء ذلك، سلبت القوات اليهودية، ونهبت، كل شيء في طريقها (Childers، ص ١٩١).

كان والدي – طالب المدرسة الثانوية – قد تطوع في اللجنة الوطنية التي أنشأتها المدينة على عجل للدفاع عن يافا. وبلا تدريب، شأن العديد من أفراد القوة العسكرية الصغيرة التي يصل عددها إلى ألف وخمسمائة متطوع، كان من نصيبه سلاح قديم غير مناسب للقتال. وقال والدي إن هذا السلاح كان مفيداً مرة واحدة فقط: كان ذلك أثناء بحثه عن شقة تسكن فيها أمه وأخته، طَرَقَ الأبواب بحثاً عن شقة خالية، وفي نهاية المطاف سمع عن وجود شقة، فتوجَّه إلى السمسار، وشرح له بشكل ودود حقيقة موقفهم الذي لا رجاء فيه، ولكن الرجل رفض تأجيرها لهم بحجة أن الشقة تخص زوجين يقضيان شهر العسل، فرجاه والدي أن يؤجرها لهم مؤكداً أنهم لا يحتاجونها إلا بشكل مؤقت، وبمجرد أن يرجع الزوجان سوف يخلونها، وكان السمسار عنيداً، وبحركة موارية أظهر والدي السلاح من تحت جاكتته،

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

فتمت عملية التأجير. كانت شقة حديثة، وفيها – لأول مرة بالنسبة لهم – حوض استحمام وحمام أفرنجي، ولكن أمه لم تشعر فيها بالراحة. ولم تمتد إقامتها فيها طويلاً؛ فالذعر كان شديداً، وبخاصة بعد استمرار يافا في الانهيار، وبعد أن وصلتهم أخبار عن مذبحة قرية دير ياسين.(٧) ثم تَقَرَّرَ أن تذهب النساء والأطفال إلى نابلس في انتظار أن تهدأ الأحداث. ومثلهم مثل الزوجين اللذين كانا يقضيان شهر العسل، لم يعودوا أبداً.

قضى والدي أيامه ولياليه «مدافعاً» عن يافا، وكان عمره تسعة عشر عاماً، متنقلاً بين العديد من الأماكن فيها، فصارت هذه الأماكن جزءاً من جولته في المدينة. وبدون الحس الجغرافي، لم تكن تعني الشوارع والمباني لي أيَّ شيء، ومرة أخرى عجزت عن الربط بين صورة والدي ذي الشعر الأبيض والبيريه الأسود وموسيقاه الكلاسيكية التي يبثها مذياع السيارة، وصورة هذا الشاب الذي يحدثني عنه. بذلت مجهوداً حتى أتمثل الصورة القديمة بالأبيض والأسود لشاب بشارب داكن وعيون لامعة في هذا المكان. ولكن كيف يمكنني ذلك؟ كانت صدمته في فلسطين تعيش بين جوانحي بوصفها مجرد تماهٍ جريح في الولايات المتحدة المعادية حيث ندر التعاطف مع الفلسطينيين، بل وسادت أكاذيب وعدوانية عما حدث. تذكر والدي، في نهاية شهر أبريل المشؤوم هذا، أن الطعام كان ينفد، والمخابز قد أغلقت أبوابها، بينما كان مدفع هاون موجَّهٌ من تل أبيب يهاجم المدينة بلا توقف. في ذلك الوقت، كانت الشوارع في معظم المناطق المجاورة خالية. وكان الإنجليز يحمون قوافل الناس النازحين. أما الشباب الفلسطيني فكانت مغادرتهم المدينة عن طريق البر تنطوي على مخاطرة كبيرة؛ إذ كانوا عرضة للاعتقال أو ما هو أسوأ، ولم يكن الإنجليز بقادرين على حمايتهم أو راغبين. لم يكن يوجد سوى البحر.

ثم، وهو في جولته، أشار والدي إلى مكان ألقى فيه، هو وصاحبه، سلاحيهما غير الصالحين حين همَّوا بمغادرة المدينة. كان قد فَقَدَ وسيلة الاتصال بأخيه الذي كان على جبهة أخرى، أما بقية عائلته فرحلت. في صباح الثالث من مايو، أدرك الاثنان حشداً غفيراً من الناس على صندل بحري صغير يقلع بعيداً عن الميناء باتجاه سفينة أشيع أنها سفينة النجاة الأخيرة. كان الصليب الأحمر قد أرسلها وكانت ستتجه إلى بيروت. وعندئذ، سَرَى بينهما التردد وساءلا نفسيهما ما الذي عليهما عمله. عادا إلى الشاطئ، كانا ملتحقين باللجنة الوطنية التي كانت تحثُّ الناس على عدم الرحيل مؤكدةً أن المدينة آمنة، واعدةً الناس بأن الإمدادات في الطريق (ولم تكن هناك إمدادات)، وحين عادا أدركا أن أحداً لم يبقَ. قال والدي إن إطلاق النيران كان يأتي كله من الجانب الآخر. وعند الساعة الثالثة بعد الظهر، رأوا سحابة دخان تنبعث من مدخنة السفينة. كانت السفينة تستعد للإبحار

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

والرحيل. تخليا عن أسلحتهما وجريا للحاق بالزورق الأخير. وعلى المركب، قابلا بحاراً بلجيكياً ظلت كلماته تتردد أصداؤها في أذن والدي على مدى خمسين عاماً: «كيف هان عليك أن تترك بلدك؟». ظل والدي يردد هذه الكلمات لنفسه مرات عديدة. مع أنه كان يعرف ألا خيار له.

تنتهي جولة يافا دائماً بالبحر. كان والدي يتجاهل اللغة العبرية التي يتكلمها الناس من حوله، ويتجاهل أزواجاً من الشباب بالبنطلونات الجينز المحزَّقة يتغازلون ويضحكون، ويتجاهل عائلات من اليهود الشرقيين محدودي الدخل خرجوا للنزهة في الهواء الطلق. رفض أن يذهب إلى مقهى الشاطئ الإسرائيلي، فأعدَّ لنفسه مكاناً على الرمال، ثم ذهب يمارس هوايته في العوم. كنت مع طفليّ على الشاطئ، كانا يرتديان قبعتين مضحكتين تحميهما من أشعة الشمس، وأدركت أنه يريد مني إظهار الإعجاب بروعة المكان. أعرف أنه يعشق البحر الذي نشأ على العوم فيه. وكان من الطريف أن يقول لزميل له عام ١٩٩٩: «نشأتي كانت بالقرب من البحر، لم أكن مقيداً بالمدينة، ولم أكن أتقيد بجماعتي التي أنتمي إليها، كنت جزءاً من عالم واسع حقاً، كنت أحلم على الدوام برؤيته» (Ahmed-Fararjeh، ص ٢٢). وقد كان: اضطر إلى الخروج ورؤية هذا العالم.

كنت طوال حياتي أرقبه وهو يحدق في البحر: من الإسكندرية، من بيروت، من أسبانيا، ومن المغرب، ومن نيوجرسي، ومن الكاريبي. كنت أراه يسبح، ماداً أصابعه الطويلة، وفيها خاتم زواجه يلمع في الشمس، أكتافه العريضة تخترق الماء عندما كان يعوم بطريقته المفضلة: سباحة الفراشة [ضربات متكررة تشبه رفرفة الفراشة]. وقد جعلنا – كلنا – نعشق البحر. أما هنا، في يافا، فقد أطلَّ على المكان الذي عَدَّه – بطريقة ما وبإصرار – بيتَه، حاله في ذلك من حال الرجل في ملصقه البني الداكن، وكنت – أنا – أستشعر أننا دخلاء. جواز سفره الأمريكي ذو اللون الأزرق هو الذي سمح له بالجلوس على الشاطئ حيث كان يسبح طفلاً مع الدلافين وسلاحف البحر، ذلك الشاطئ الذي كانت أمه تراه من نافذتها وهي تشرب قهوتها. شعره الأبيض الذي لا ينذر بخطر، والقمصان ذات الياقة المرفوعة هي التي سمحت له أن يُصَنَّفَ بوصفه سائحاً أجنبياً، وليس «مواطناً» عربياً خطراً أو محتقراً. وفي المكان المخصص للسيارات على الشاطئ، سمحت له الألواح المعدنية الصفراء – التي تشير إلى أن سيارته ذات رخصة إسرائيلية والتي منحته حرية الحركة – بأن يقف بحذاء الآخرين دون أن يلفت الانتباه (السيارات المباعة للزائرين المؤقتين الذين لا يدفعون ضرائب تأخذ دوماً لوحات معدنية مرخصة مثل بقية السيارات الإسرائيلية، مما يميزها عما عداها من السيارات في الضفة الغربية أو غزة). تلك هي الألوان الساطعة في عودته إلى يافا وليس اللون البني الداكن في ملصقه.

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

الذكريات بوصفها تاريخاً

وبوصف والدي أكاديمياً مهووساً بفلسطين، كان كثيراً ما يفكر في أهمية جمع ذكريات الناس عن الخروج الإجباري عام ١٩٤٨. وتبدأ مقدمته لسيرة الحياة الرائعة – التي طلبها من صديقه القديم وزميل المدرسة الثانوية رجائي بُصيلة – بتعليق عن **النكبة**، حيث كتب يقول: «مع أنها كانت حدثاً قوياً وفاجعاً، ومع أنها شكلت وجهاً مهماً من وجوه التراث الفلسطيني فهي الحدث الوحيد في التاريخ الفلسطيني الذي لم يدوَّن من وجهة نظر الضحية أساساً».(٨) وكما كتب عام ١٩٨١، علينا أن نقوم بفهم الخروج، «وإن كان في هذا الوقت المتأخر»؛ حتى نفهم التجربة الفلسطينية، حتى نكون شهوداً على تاريخ مسكوت عنه، حتى نعيد بناء هذا الحدث بكل تعقيده. وكان يهتم، دائماً، بالمشهد في اتساعه، فكتب يقول: «نعرف أن ملابسات الخروج تختلف اختلافاً كبيراً من منطقة لأخرى في فلسطين ومن طبقة اجتماعية لأخرى» (Busailah، ص ١٢٣).

تختلف سيرة الخروج الدامية، من مدينة اللّد، التي عاشها بُصيلة في يوليو عام ١٩٤٨، عن حكايات والدي الخاصة بالقتال الذي أخفق دفاعاً عن يافا، ثم الهروب عن طريق البحر. تحتوي سيرة بُصيلة على أشكال من الفهم السياسي لدى شاب راديكالي في المدرسة الثانوية، مع أوصاف لمواقف عاشها بنفسه وأخرى رويت له: قذفُ المدينة التي أغار عليها المقاتلون الصهاينة بالقنابل، شائعات عن المذابح، الخروج الإجباري الذي اضطر إليه سكان هذه المدينة جميعهم وهم حيارى لا يعرفون إلى أين يتجهون، وكان يُعتقد أن هذه المدينة لن ينال منها أحد. لم تكن مدينة اللّد ضمن حدود المنطقة المخصصة للصهاينة في قرار الأمم المتحدة بالتقسيم. غير أنها تعرضت للهجوم وطُرد سكانها في ثانيةِ حربين قصيرين مع القوات العربية دخلتهما دولة إسرائيل المعلنة حديثاً. ويصف بُصيلة عملية طردهم في الصيف ومسيرتهم الطويلة إلى المجهول بتعبيرات توراتية: إلى البريّة. وفي نهاية هذه المسيرة، على مدى يوم رهيب، انحرفوا إلى قرية عربية تسمى نعلين، على بُعد خمسة عشر ميلاً بما فيها من تعرّجات وانعطافات حتى يتجنبوا المناطق المعادية. وتنطوي ذكريات بُصيلة على لحظات من الخوف الشديد قبيل الرحيل؛ إذ حين اقتحمت القوات اليهودية البيوت، كان يختفي خلف حصيرة مطوية، يرتجف من الخوف، وكانت طلقاتهم النارية تصاحبها صرخاتُ النساء الفزعات. وتهجس ذكرياته، أيضاً، بأحداث تنمُّ عن قسوة قلبه ونكرانه الآخرين، كما حدث بعد وصوله إلى نعلين، حيث شق طريقه عائداً خلال الجموع المتخلفة عن الركب ليحضر قليلاً من الماء لصديق حميم وأمه، وكان يخفي الماء عن العطشى الذين يلتمسونه بشكل يدعو إلى الشفقة.

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

يتذكر بُصيلة الأحداث التي عاشها بنفسه والتي سمعها من الآخرين. ولأنه كفيف، فإن المزج بين التجربة المعيشة وما يرويه الناس له، مما يشكل ذاكرتنا، أكثر كثافة عنده. تصف سيرته لهيب الشمس والتكالب على الماء في الآبار الموحلة، كما تتضمن كلاماً عن الأجداد الذين تُركوا لأنهم لم يقدروا على مواصلة السير، وعن «أجساد خَبَتْ فيها الحياة» وأطفال تُركوا لمصيرهم في الخنادق. كتب بُصيلة يقول: «بدأت أستوعب رويداً رويداً من خلال الصراخ وما يتناهى إليَّ من جُمَل متقطعة أن بعضاً ممن لقوا حتفهم تدلت ألسنتهم، وقد علاها التراب والزغب. لم أكن أرى، مما جعلني أشعر بفزع أكبر من غيري». ثم كتب يقول: «وفيما بعد، قال أحدهم – أظن حين وصلنا إلى نعلين – أنه رأى طفلاً لا يزال حياً على صدر امرأة ميتة، كان من الواضح أنها أمه (الأم وطفلها يشبهان ما رُوي فيما بعد عن أمٍّ من دير ياسين شوهدت في القدس مع طفلها المقتول على صدرها)».

وفي محاولة العثور على النبرة المناسبة، حوَّل بُصيلة – فيما بعد – هذا الوصف الموجز إلى صورة شعرية، إذ أبدع من هذه القصة الأخيرة قصيدةً أسماها «ذكرى بعد أربعين عاماً في البرية» "Remembering After Forty Years in Wilderness"، ولم تعد كلمة البرية تدل، الآن، على الطريق الذي كان يتعثر فيه إلى نعلين فحسب، بل على عمره الطويل في المنفى، في الكويت والأردن والولايات المتحدة:

على وجه أوروبا سديم
وكانت أمريكا آنذاك في مخاضها
وقال الله ليكن نور

ولما كان نور
كان حشد من الناس يمشون على الطريق إلى نعلين
وكانت الريح تتماوت
وحلمتان ميتتان
وكان رضيع يدفن وجهه بينهما
ينتظر الرضاعة.

كانت شمس يوليو قاسية آنذاك
تشهد على ما حدث، بينما تجلت في الربيع
رحمة الرب وأمر بأن يكون نور

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

ولما كان نور
وفي موكب على مشهد من مدينة الله
كان طفل من دير ياسين
يضوع منه عبق زهر البرتقال
راقداً على بطنه، ميتاً بين حلمتين تتلهفان على إرضاعه.(٩)

لم يكن والدي قلقاً بشأن بنيان الذاكرة الفردية المتشظي، ومساحات الصمت وانحناء الذاكرة بفعل الزمن الحاضر أو بفعل المزج بين المعيش والمسموع، وهو القلق الذي ينتاب التحليل الأكاديمي الراهن للذاكرة الفردية أو الجمعية. لقد رأى في السير الفردية، شأن سيرة صديقه، مادةً خاماً يشتغل عليها تاريخ التجربة الفلسطينية. فكان يحثُّ الناس على الكتابة والحكي، ولو أنه كان يركز على أصدقائه المثقفين أكثر ممن كانوا قرويين وأسهموا في كتب تذكارية من قبيل الكتب التي ناقشتها دافيز Davis وسلايموڤيتش Slyomovics، أو النساء في مخيمات اللاجئين ممن حكين قصصهن لباحثين من أمثال روزماري صائغ Rosemary Sayigh، وديانا ألان Diana Allan وإيزابيل همفريز Isabelle Humphries ولالة خليلي Laleh Khalili (وكل هؤلاء ضمن *Sa'di* and Abu-Lughod, eds. *Nakba*). لم يكتف والدي بحكاية قصصه لأولاده بل نشرها في جرائد ومجلات وحكاها لمحاورين بمن فيهم أحمد فرارجه الذي جمعها في كتاب. ولعله من العوامل التي أعانته على تنشيط ذاكرته – شأنه في ذلك شأن فلسطينيين آخرين – المشروعات المعنية بإحياء ذكرى مرور خمسين عاماً على النكبة. وفي خريف حياته، عمل أيضاً على مقترح يتعلق بإنشاء «متحف الذاكرة الفلسطينية»، وهو مشروع يبدو أكثر وهمية، الآن، بعد أن أصبحت الدبابات الإسرائيلية تشق طريقها على مقربة من شقته القديمة [في رام الله]، وبعد موجات الاعتداءات الإسرائيلية منذ ٢٠٠١ التي دمرت ما تبقى من أمل ضعيف عندما كان والدي يحيا من أجل مرحلة هدوء وسيادة فلسطينية، وإن كانت مبتسرة. كان والدي يريد من هذا المتحف تقديم معروضات إثنوجرافية وأركيولوجية وفنية لإظهار استمرارية التاريخ الفلسطيني وحركته الدائبة. وكان يؤكد باستمرار أن هذا المتحف لن يكون – قطعاً – على غرار متحف المحرقة. فالنكبة يخصص لها، عن عمد، حيز صغير. وتكتمل هذه المعروضات بأرشيف الوثائق الأساسية التي يحتاج إليها البحث في التاريخ الفلسطيني.(١٠)

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

تحويل البقايا المادية إلى تذكارات

دوماً يكون لموت الأب وَقْع عسير على الابنة. غير أن هذا الأب حين يوقف حياته على شيء أكبر من العائلة، فلا ريب أن موته يتخذ معنى أكبر من المعنى الفردي. مات أبي يوم ٢٣ مايو ٢٠٠١، وهو في كنف عائلته وأصدقائه. وفيما يخصني، كان الوقع الأول لموته وقعاً شخصياً قاسياً، ومثبَّتاً على الأشياء العينية [التثبيت بدلالته في التحليل النفسي]. لقد كان على ظهر كرسيه المتحرك، الأسود ذي العجلات الحمراء اللامعة، بنطلونه الخاكي، وكما كان يشير له مقلداً اللكنة العربية، ساخراً من الذات بتنكيت كاريكاتوري [عن عدم تمييز الناطقين بالعربية بين الباء المجهورة والمهموسة b/p]: «بير أوف بانتس» bair of bants [عوضاً عن پير أوف پانتس pair of pants]. كان الحزام يتدلى معوجاً. وعلى طاولة الحمام كوز الحلاقة لم يُمس وقد صار ماؤه بارداً. في كل أرجاء شقته في رام الله، ترك علامات على حياته المنقضية: أسطوانات موسيقى ڤيڤالدي التي كنا نصر – أنا وأخواتي – على تشغيلها، بينما كان شخص ذو قرابة بعيدة يلح على ضرورة تشغيل تلاوة قرآنية. كانت هناك أسطوانات أوكسجين، اثنتان من الحجم الكبير بجوار سريره، وأربعة من الحجم الصغير تصطف في الصالة، وواحدة على عربة الترولي عليها نجمة داود، مما يعني أنها مشتراة من «الجانب الآخر». كان في غرفة والدي الكثير من الأشياء الصغيرة، التي تجعل الابنة تبكي: ساعته، نظارته، حافظة نقوده، صندله، فاكهته المجففة، أكوام من أوراقه البحثية.

كل شيء توقف الآن، رعاية والدي بشكل يومي توقفت. لن تُعِدَّ له عمتي بعد الآن قهوته العربية فتأتيه بها في فنجان أخضر يميل إلى الزرقة ومزخرف يدوياً، ثم تسمع إطراءه لها. أنا وأخواتي، وقد تركنا عائلاتنا وأعمالنا كي نأتي إلى رام الله، لن نساعده بعد الآن في ارتداء ملابسه يومياً، لن نحثه بعد الآن على تناول إفطاره. ولن نفتح بعد الآن الباب لضيوفه الكثيرين، ولن نشتكي بعد الآن من كثرة الضيوف خوفاً على صحته. لن نقول له بعد الآن إن الوقت لم يحن بعد لتناول الحبوب المسكنة للألم. لن نعطي بعد الآن تعليمات الطريقة السليمة لإعداد شوربة الدجاج. لن نذهب بعد الآن لشراء الجرائد العربية والإنجليزية له، التي أصر عليها وإن لم يعد لديه قدرة على قراءتها.

وأما بعد موته مباشرة، فها نحن نغرق في تفاصيل الروح الشعبية الطقسية: أجلسنا صديقه سهيل، وأخذ ينبهنا ويشرح لنا بجدية أنه توجد عادات معينة علينا اتباعها، كما لو أننا لا نعرف شيئاً عن العالم العربي. وبينما كنا نحن – أولاده الذين تتفاوت درجة إلمامهم بالمجتمع الفلسطيني، وإن لم يكن لنا تقريباً أية تجربة في فلسطين – نجلس حزانى،

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

تكفّل أصدقاؤه بعمل كل شيء. كان عليهم أن يقوموا بعمل تسوية مع عالَم الجماعة الفلسطينية الغارق في السياسة أثناء الانتفاضة، وهو عالم لم نكن مهيئين للتعامل معه. كتبوا شهادة موته، وحصلوا على شهادة دفنه من الوزارات الإسرائيلية المختصة. قاموا بعمل ترتيبات الجنازة في يافا، وكذلك ترتيبات العزاء الذي يستغرق ثلاثة أيام في رام الله. وصلت كَرَاسٍ بلاستيكية إلى الشقة، ثم رُصَّت في صفوف بموازاة حوائط غرفة المعيشة وغرفة السفرة والشرفة الواسعة. نُظفت المناضد وأعدت القهوة السادة. عُلقت صوره على هيأة ملصقات. وفي المطبخ تكدست القهوة العربية وصناديق زجاجات المياه، وعلب مناديل ورقية، عرفنا أنها هدية من السلطة الوطنية الفلسطينية، وكان ذلك مما فاجأني. سيأتي عرفات من المطار مباشرة بين لفيف من المعاونين والحرس ليقدم تعازيه في هذا الأكاديمي الفلسطيني الذي بذل الكثير من أجل القضية. وُضعت الإعلانات وأجريت مقابلات صحفية، وأعدت قائمة بالمتحدثين – على سبيل التأبين – في هذه المناسبة. جاء أناس وذهبوا: علية القوم، جيران، صحفيون، سياسيون، أصدقاء من المعارف الشخصيين ومن المثقفين. وعندما وصل عمي وابن عمي من الأردن، حملوا عنا واجب تلقي العزاء؛ فهربنا إلى غرفة نوم والدنا، شاعرين بحضوره، شاعرين بالفراغ.

ثم رأينا والدي مرة أخرى يوم الجنازة. كان جسده هزيلاً، يرقد في غرفة صغيرة جامدة ذات أبواب معدنية خضراء تقع خلف مستشفى المقاصد الإسلامية في القدس، وقد جُهِّز وفقاً لطقوس الدفن المعتادة. كان ملفوفاً في أكفان بيضاء تحدده فبدا ضئيلاً ونحيفاً. وحين ذهبت لألقي نظرة على وجهه – وكان جزء صغير منه مكشوفاً – وجدتني أبتعد فوراً. كان وجهاً بلا حياة؛ فبدت النهاية حادة في ماديتها.

وفي الوقت نفسه، تحوَّل أبي إلى رمز عند الآخرين. صحيح أن إجراءات التكفين تمت بوصفه مسلماً، ولكنه صار أيضاً بطلاً قومياً عند كل الناس. بدأنا في انتظار طويل حتى يتجمع الناس من أجل الذهاب به إلى يافا؛ فالطقس جماعي. وأثناء ذلك، كنا نترقب بتوتر أية تحركات غير عادية، ونتساءل إن «كانوا» سيمنعوننا من أخذ جثمانه. ثمة رجل يصورنا بكاميرا ڤيديو. وقد غمرتنا راحة نفسية بعد أن عرفنا أنه من تلڤزيون الجزيرة، وهي قناة فضائية عربية، لم تكن معروفة خارج العالم العربي حينئذ، فقد كنا في شهر مايو قبل أشهر قليلة من أحداث ٩/١١ التي دفعت بهذه القناة إلى دائرة الوعي الغربي. وسَبَبُ هذا الترقب المتوتر الذي انتابنا أنه في المساء السابق، والبيت ممتلىء بالمعزين، تلقينا مكالمة تليفونية محبِطة. كان المتكلم يتحدث بالعربية، وبعد أن قدَّم عبارات العزاء التقليدية طلب أن يتحدث مع الشخص المسئول عن

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

ترتيبات الجنازة، وعرَّف نفسه بأنه من الاستخبارات الإسرائيلية، شين بيت Shin Bet. ضعفت قدماي عن حملي، ولم أفكر حينذاك إلا في حظي لكوني في منطقة خاضعة للسلطة الفلسطينية [لا إسرائيل]. كل ما تمكن هذا الضابط من عمله مكالمة تليفونية، ولم يأتِ ليطرق الباب أو يهدمه. ولم أكن أتصور الإسرائيليين إلا من خلال صور الأبيض والأسود الباهرة للكوماندوز الفرنسيين الاستعماريين الذين يهدمون الأبواب، كما في فيلم بونتيكورڤو Pontecorvo اللامع **معركة الجزائر** *Battle of Algiers*. ولو كان الحدث بعد أشهر قليلة، عندما احتلت الدبابات الإسرائيلية رام الله مرة ثالثة، لكان بإمكان هذا الضابط أن يقتحم حزننا الشخصي.

وعلى الفور، أعطيتُ سماعة التليفون لأصدقاء والدي. سمعت مناقشة حامية تأتي من أقصى غرفة النوم. كانوا يتكلمون عن أنه لن يُسمح لهم بدفن والدي في يافا. كيف عرف الأمن الإسرائيلي بالموضوع؟ أذاع الراديو الفلسطيني والجرائد المحلية كل شيء: أول لاجئ فلسطيني يُدفن في مسقط رأسه. وأكد زملاء والدي أننا نمتلك الوثائق السليمة كلها: شهادة الوفاة من القدس وتصريح الدفن من الوزارة الإسرائيلية المختصة بفضل «أصدقائنا العرب الإسرائيليين» الذين ترعرعوا في النظام الإسرائيلي. ولكن ضابط الأمن كان متشبثاً بموقفه. ثم قال إنه سيعاود الاتصال مرة أخرى. اجتاحتنا حالة انفعال عميق. وبدأ الرجال يفكرون في السيناريوهات المحتملة، وكلها كانت مفزعة بالنسبة لي: قد يقومون بتوقيفنا ونحن نأخذ الجثمان من المستشفى، أو في أثناء الطريق إلى يافا، أو على مشارف الجبانة. فهل من المعقول أن نواجه الجيش الإسرائيلي وجثمان والدي يرقد تحت وهج الشمس؟ ماذا سنفعل؟ اقترح البعض أن أتصل بالقنصل العام الأمريكي في القدس. فما من سبيل آخر. فاتصلتُ به، وشرحت المشكلة التي نواجهها. كانت أمنية والدي أن يدفن في يافا، ومعنا كل الأوراق السليمة. أثنى القنصل على والدي وقدم العزاء، ثم أكد لي أنه سيتصل بالسفارة في تل أبيب. ولما لم نتلقَّ مكالمة أخرى من ضابط الشين بيت الاستخباري في هذه الليلة اعتقدنا أن هذا فأل حسن. كنت أريد لوالدي أفضل شيء يمكن عمله، أما الآخرون فكانوا على استعداد لاستغلال هذه المناسبة من أجل تأكيد حقوقهم في مواجهة التحدي الإسرائيلي.

في صباح الجمعة، خلف مستشفى المقاصد، لم يكن يوجد سوى الناس المتجمهرين، وفيما عدا ذلك لم يحدث شيء، فشعرت براحة نفسية. توافد المزيد من الناس؛ وجوه أصدقائه المألوفة، وكنا نعرفهم، وآخرون كنا نراهم في المنزل على مدى الشهور الماضية. أسعدني أن أرى بعض من أَعُدُّهم أصدقاءً، وهم أكاديميون من جيل الشباب تحدثوا معنا بالإنجليزية. وكان هناك آخرون كثيرون لم نكن نعرفهم. جاء أناس ليصافحونا. أما

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

الأصدقاء فاحتضن بعضهم بعضاً. ووقف رجال عند مدخل غرفة الطوارئ. ثم بدأ التهامس حين وصلت شخصيات بعينها من علية القوم أو مثيرة للجدل. جلسنا مع البعض داخل المستشفى، تحت أسقف أسمنتية عارية معروشة بأسلاك. ولم يكن في مقدوري أن أمنع نفسي من الشعور بالرثاء لهذا المستشفى العربي الفقير المتهالك، الذي يختلف تماماً عن مستشفى هَداسا Hadassah على مستوى المهارة المهنية والنشاط، حيث ذهب والدي من أجل لقاءاته الصعبة الأخيرة مع اختصاصي الرئة الحاذق واختصاصي الأورام السرطانية غير الودود.

وأخيراً، حان وقت التحرك. عربة نقل بيضاء مغلقة، بلا أية علامة عليها، توقفت فجأة أمام المشرحة، ونُقل إليها النعش. أنا وأخواتي، تشبث كل منا بالآخر ونحن نحدق من شباك العربة إلى هذا الصندوق المنعزل الخالي من أي لون. استقلّت جموع الناس سيارات وأتوبيساً جاء من رام الله، فصنعوا موكباً طويلاً. سرنا ببطء، ونحن نتلفت يميناً ويساراً، نترقب ظهور عربات الجيش الإسرائيلي الجيب أو البوليس. ولكن الطريق كان خالياً. سمعنا أن سفير الولايات المتحدة قد طمأن، مرة أخرى، شخصاً ما بأنهم سيراقبون الموقف. وشعرت بالمفارقة: والدي – بوصفه مواطناً أمريكياً – تحميه الحكومة نفسُها التي كان يلومها باستمرار؛ لأنها تدعم قاتلي أهله وتسلّحهم. ولكني كنت أشعر بالامتنان.

سارت السيارات لمسافة طويلة، على طرق عمومية، وخلال طريق خلفي في القطاع الصناعي يفضي إلى القسم العربي من يافا. وفي منطقة قريبة مزدحمة، تركنا سياراتنا ومَضينا. على الجدران ملصقات تتضمن مقالات من الجرائد عن والدي وملخصاً عن مؤهلاته وخبراته. أدركت أن الأستاذ شخصية محترمة في هذا المجتمع. وكانت لوالدي خصوصية بسبب أسلوبه الجديد: اختراق عدم فاعلية الاعتصامات، تجاهل حظر التجوال، رفض أية حدود بين الفلسطينيين – سواء في الشتات أو في المناطق المحتلة أو داخل إسرائيل – الرغبة في أن تقوم المجتمعات بدور كما كان يدعو أثناء سنواته في الولايات المتحدة.(١١) كنا في مركز جمعية يافا العربية، وهي المكان الذي حاضر فيه والدي جمهوراً كان مولعاً به إلى أبعد الحدود. هذا المكان بقايا ما كان مدينةً فلسطينيةً ذات يوم. كان يرأس الجمعية بعض الرجال الذين تحملوا – بكل تفانٍ – عبء إسداء العون في ترتيبات الجنازة. كان دعم والدي واهتمامه بأنشطتهم يعني لهم الكثير (وضْع اليد على المباني المصادرة، إخلاء مداخل الطرق إلى البيوت المسدودة بأنقاض تل أبيب ومخلفاتها، الدفاع عن العرب المسحوقين في المناطق المتهدمة وتقديم خدمات اجتماعية للمحتاجين منهم، وبخاصة أنهم يعيشون في مستويات تختلف عن المستويات الاجتماعية المرتفعة في المناطق التي يعيش فيها اليهود).

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

وُضِع النعش على منضدة ضخمة في غرفة صغيرة على اليسار. وكانت توجد أكاليل من الزهور. بدا النعش فجأةً، وهو ملفوف الآن بالعلم الفلسطيني، نابضاً بالحياة. لم يعد والدي الجثةَ الهزيلة التي رأيناها من قبل. لقد اكتسب موته معنى كبيراً. وفي وقت صلاة الظهر توقفت كلمات التأبين التي كنت أسمعها بالكاد. اندفع الناس من الأبواب كي يلحقوا النعش. حمله الرجال عبر الشوارع الجانبية المؤدية إلى مسجد العجمي، تدافعوا ليأخذوا دورهم في حمل النعش. وكان ابن أختي بينهم، هو الوحيد الذي يربط شعره خلف رأسه مثل ذيل حصان، لكنه الوحيد الذي أحب والدي على الوجه الأمثل، إذ عاش معه في رام الله لمدة عامين. وفي طليعة الموكب رفع بعض الشباب العلم الفلسطيني لواءً. وكان الناس يُطلون من الشرفات العالية.

وعند المسجد، حملوه صاعدين السلالم. تساءلت متى كان آخر مرة في مسجد، لكن هذه هي المسيرة عند الموت: كان المجتمع يستوعبه والجماعة تسترده. بقيتْ كل النساء خارج المسجد، غير أني لاحظت أن عدداً من الرجال بقوا أيضاً خارج المسجد، وهم أكثر ممن دخلوا. فسألت زميلاً له من جامعة بيرزيت: «هل كل هؤلاء مسيحيون؟» فأجابني بابتسامة: «لا، يوجد الكثير من الماركسيين اللينينيين!».

وقفنا ننتظر. كانت الشمس حامية لكننا بدأنا نشعر بتحسن، فقد أمكننا رؤية البحر الآن. ثمة فتاة مراهقة ذات شعر طويل وعيون كبيرة مثل عيون الوعل، ترتدي تي شيرت وبنطلوناً من الجينز، أقامت صداقة مع أختي أثناء هذا الوقت. قالت إنها لم تكن تعرف والدنا، ثم أضافت: «ولكني لأول مرة في حياتي أشعر بالفخر لأني من يافا». وفي حقيقة الأمر، كان يوجد كثير من الناس ممن لم يعرفوا والدي، على ما خمّنت. وقد جاء هؤلاء من أرجاء فلسطين كلها، وبصفة خاصة من القسم الفلسطيني المحتل في ١٩٤٨. كان يوجد، أيضاً، قليل من اليهود الإسرائيليين المناهضين للصهاينة، وقد كان والدي بالنسبة لهم جسراً مهماً. ثم بدأت أفهم أن هناك الكثير من الناس لم يتمكنوا من المجيء؛ وهم الذين يحملون بطاقات هوية من الضفة الغربية أو غزة، إذ لم يكن مسموحاً لهم عبور نقاط التفتيش إلى «إسرائيل». وهناك، أيضاً، صديق حميم من أصدقاء والدي، وهو أستاذ كان قد انتخب في الهيئة التشريعية الفلسطينية، رفضوا التصريح له بمغادرة غزة لحضور هذه المناسبة، على الرغم من أن زوجته الأمريكية السابقة حاولت التوسط له.

عندما انتهى المصلون، بدأنا في التحرك. النعش محمول على أكتاف أمواج من الرجال، يتأرجح تأرجحاً قوياً. وفي المقدمة، من بعيد، يلوح العلم الفلسطيني، وهو يتمايل تمايلاً متحدياً. موكب ضخم من الناس السائرين معاً، يصعدون مرتفعاً وأياديهم متماسكة، يتحدثون وهم

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

شاعرون أنهم جزء من كل. مررنا بمطاعم السمك التي كان والدي يحب أخذ ضيوفه إليها. الأسماك مثل البرتقال عنده، كانت جزءاً من المذاقات العالقة بحس الانتماء إلى يافا. وهي مذاقات أقوى من حلوى المادلين المشهورة عند پروست Proust. المتفرجون على الموكب يرقبونه وقد أخذتهم الحيرة؛ فبعض الأطفال يلوحون معتقدين أنه موكب استعراضي. يعيش الآن كثير من الإسرائيليين فى المناطق العربية من يافا، والبعض يستمتع ببيوت مرممة ترميماً جميلاً بالبلاط والأقواس العربية، ولو أن عمتي ستنهار عندما تكتشف ذلك، فيما بعد، ونحن فى طريق العودة إلى يافا بعد أسبوع. على جانبنا السفلي الأيمن يبدو البحر متألقاً، شمس الظهيرة تسقط على راكبي الأمواج المتزلجين الذين خرجوا يستمتعون بالنسيم العليل. كان الإحساس بالبهجة شديداً: أناس كثيرون يمشون معاً خلف نعش يلفه العلم الفلسطيني، وكان مما يدعو إلى الدهشة أن أحداً لم يمنعنا من دفن والدي فى جبانة تطل على البحر في مسقط رأسه، يافا، كما تمنى.

كنت قد تأخرت عنهم، وعندما لحقت بهم في الجبانة رأيت بضعة رجال على مرتفع على يمين ثلاثة أشجار. وبينما كنت أسرع علقت قدماي، وهي في حذائي المفتوح ذي الكعب العالي، بنتوءات قبور متهدمة وغصينات. أخواتي وعمتي وقفن عند منتهى حشد الرجال. كنا نرقب والدي وقد لفه العلم، وجهه الصغير مكشوف، نراه الآن للمرة الأخيرة. سحبوه من النعش، وضعوه على أرض محفورة للتو. عادت بقاياه المادية إلى أرضه، في بقعة من أجمل بقاع الأرض (فيما عدا البيوت المنهارة ومساحات من الأرض الفضاء والتشييد المتواصل لـ«مركز پيريز للسلام»)، على هذا الجُرُف بجوار شاطئه المفضل.

وبينما كنا نشق طريقنا خلال الجبانة، سألنا صديقٌ حميم من أصدقاء والدي: «هل تريدون رؤية قبر جدكم؟» تذكر عمي مكانه، فقد كان وهو طفل يذهب إلى زيارته كل أسبوع. كان قبراً كبيراً، ولا يزال يبدو جديداً يقف بارزاً بين فتات الأحجار. ويبدو أن أحجاره من نوعية ممتازة، فهواء البحر لم يؤثر فيه مع أنه كان قاسياً على أصلب أنواع الأحجار. على جانب القبر قصيدة مكتوبة بخط منمق، وبالقرب من قاعدته رأينا اسمه: علي خميس أبو لغد. مات بعد إطلاق سراحه بوقت قصير منذ أن اعتقله البريطانيون آخر مرة بلا تُهَم. وبالقرب منه تماماً، كان قبر عمي الذي قتله الإنجليز قبل عام من رحيل العائلة، فى ١٩٤٨. وفيما بعد، عرفنا أن هذه الجبانة لم يدفن فيها أحد منذ عشرين عاماً.

حين ظهرنا من البوابة، ونحن نخطو عبر التراب والأنقاض، جاء الناس يعزّوننا واحداً فواحداً. كم كان عددهم؟ كانوا كثيرين جداً. فهل

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

يعرف كل هؤلاء الناس والدي؟ أم أنه كان رمزاً: ابن يافا، الفلسطيني المشهور، عاشق فلسطين، الذي حقق في النهاية حقه في العودة؟

قال محمود درويش، الشاعر الفلسطيني الكبير، وهو يتذكر والدي بعد موته بعدة أيام قليلة: «كل موت هو موت أول، مفاجئ، صاعق، غير معروف وغير مألوف». ومع هذا، فقد طُعِّمَ موت والدي بقصص معروفة من قبل. وقد أدهشني والدي نفسه بلجوئه أثناء مرضه إلى تعبيرات غريبة لها إيحاءات دينية، وعلى سبيل المثال كان يشبِّه الألم الذي يعانيه في جانبه برفسة الملائكة، وكلما عانى من ألم السرطان وهو صابر عليه، كان يعلق شبه مازح: «نحن [الفلسطينيين] ولدنا لنعاني . . . مثل المسيح». أما الآخرون فكانوا أجرأ في استعاراتهم؛ ففلسطين ويافا هما «مواقع الذاكرة» بأصدائها المثيرة (Nora). ويشبِّه درويش فلسطين عند والدي بـ«الجحيم والفردوس معاً. ولأن سدرة المنتهى تنمو في مدينة يافا». ثم وصف حضور والدي في «قافلة الترحيل الجماعي» من يافا بأنه خطيئة أصلية، لا لاقترابه من شجرة المعرفة المحظورة بل لأنه كان بعيداً عنها بعداً كبيراً؛ مما يفسر التزامه على مدى حياته بالبحث والاجتهاد الفكري. ثم يختم درويش كلامه – كما فعل غيره – بالحديث عن عودة والدي إلى فلسطين، فيقول: «عاد ليغرس فيها شجرة المعرفة، فكان هو الشجرة». ثم يتناص مع اللغة القرآنية عن العودة عبر الموت، فيقول: «لقد ولد في يافا، وعاد إلى يافا ليبقى، هناك، إلى الأبد، قرب سدرة المنتهى».

ثم بعد سنوات قليلة، لفتت نظري تعليقات انفعالية قالها لاجئ عجوز من يافا يعيش في غزة، جمع فيها أيضاً بين الجنة ويافا. ومما يسترعي الانتباه في فيلم عمر القطان التسجيلي عام ١٩٩٥ عن سقوط يافا، وعنوانه **العودة... محارب بريطاني قديم في فلسطين**، أن رجلاً عجوزاً يقول لابنه إنه لا يستطيع تقبل ما حدث ولن يقبله. ثم يؤكد بطريقة تنطوي على ما يقترب من الكفر: «في يوم الحساب، حين يخبرني الله قائلاً: "أردتُ لك الجنة، فما قولك؟"، سأقول: "لا، أرجعني إلى بلدي، فأنا أريد الحياة في يافا". أرأيت؟ سأرفض الجنة وأقول: "من فضلك، دعني أرجع لأعيش في يافا، فهي بلدي"».

ولعل القصة الأكثر شيوعاً التي تحتضن والدي وهو ميت كانت القصة التي عبَّر عنها العلم الفلسطيني الذي غطوه به. لم يكن والدي ممن يلوِّحون بالأعلام؛ كان يكرس حياته للعدالة، كان يعشق فلسطين وأهلها، ولم يكن وطنياً فجاً، بل ظل مستقلاً على المستوى السياسي، ينتقد دائماً، ويبحث بحثاً أكاديمياً طيلة حياته. ومع هذا، لفوا نعشه في مبنى مركز جمعية يافا العربية بالعلم الفلسطيني في انتظار تشييع الجنازة. وأنا لم ألوح بعلم أبداً، ووجدت في ذلك التسييس نوعاً من المزايدة. ومع هذا، فقد

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

أحسست أن العلم يشحن النعشَ بكاريزما غريبة. لقد رفع الشبابُ العلمَ الفلسطيني عالياً في طليعة الموكب الجنائزي ونحن في طريقنا إلى الجبانة، وتلك إشارة تحدٍّ في بلد يعاني فيه الناس من ويلات السجن بسبب رفع هذا العلم. وبرغم ذلك، فهي حركة عادية على أرض حفلت بالكثير من جنازات «الشهداء» الشباب. ثم بعد يومين، امتدح خطيب متقد الحماسة والدي لاتخاذه قرار العودة إلى فلسطين، تاركاً وراءه رفاهية الحياة ومزاياها في أمريكا. ولأنه لم يضع شروطاً لهذه العودة، يستدل الخطيبُ من ذلك على أن «عشق الوطن لا شروط له».

أما إدوارد سعيد، الأكاديمي المتألق، وأحد أصدقاء والدي المقربين، وقد امتد عمره بعد موت والدي لمدة تقل عن ثلاث سنوات، فهو أقل رومانسية فيما يتعلق بالوطن. وفى الطقس التذكاري نفسه في رام الله عَارَضَ سعيد الصورةَ الخادعة عن الوطنية – صورة حملتها أيضاً مئات اللوحات التي ظهرت باسم منظمة التحرير الفلسطينية، والسلطة الوطنية الفلسطينية، وحركة فتح التحريرية، فيما صار تقليداً يشير إلى شهداء النضال من أجل فلسطين – عَارَضَها بالحديث عن المواطنة العالمية عند والدي. ثمّ أخذ سعيد يتكلم عن انفتاح والدي على الناس وثقافة البلد الذي قضى فيه أربعين عاماً – ألا وهو الولايات المتحدة – مع أنه كان يعارض سياساتها. كما تحدث عن فضول والدي وأسفاره العديدة: إلى الصين وپيرو والهند وبلدان أفريقيا. وفي ذلك انتقاد ضمني للمحلية أو الإقليمية التي تنشأ عن النزعة القومية. ولتخفيف جنون العظمة الذي يلازم أيضاً الوطنية، يستشهد سعيد بلازمة لوالدي تنطوي على حلاوة ومرارة في آن واحد: «نحن أناس عاديون. أناس طيبون، ولكن عاديون». وفيما بعد، سوف يكتب سعيد كيف أن والدي – على الرغم من عودته – «كان لا يزال غير متحقق وغير مستقر»، مضيفاً أن «العودة لم تغيره، مع أن شعوره بالرضى في وطنه كان أكبر من شعوره به وهو في المنفى. كانت فلسطين عنده سؤالاً لا يمكن أن يحظى بإجابة كاملة أو حتى سؤالاً يصعب التعبير عنه». غير أن سعيد لا يتمالك نفسه عن قراءة حياة والدي وموته على أساس قصة أكبر. يلحظ سعيد تنقل والدي من «ميله إلى الحياة الجماعية إلى تأمله الباطني المزاجي، ومن نزوعه التفاؤلي والحيوية إلى الإحساس بالعجز، وهو إحساس معطِّل»؛ مما يجعله يستنتج الآتي: «تعبِّر حياته عن الانكسار والانتصار، عن القنوط والإنجاز، عن الإذعان والحسم في آن معاً. وبإيجاز، كانت حياته نسخة من فلسطين، عاشها بكل تعقيدها».(١٢)

أما ما لم يغفله أحد في التأبين فهو أنه حقق **عودته**: رجوعه في النهاية إلى يافا.

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

الماضي في الحاضر

طبقاً لوالدي، كان الرجوع يعني تطعيم خشونة التاريخ بحكايات مرهفة، كان يعني مواجهة أصيلة مع الحاضر. ومما يثير الدهشة أنه كان يحمل على كاهله هذه المهمة بكل حماسة. وهو مَن كان يرفض العودة لوقت طويل، بدأ في تشجيع كل فلسطيني على الرجوع، حتى وإن كان سيعاني من استجوابات سلطات الاحتلال الإسرائيلية المُهينة في المطار أو الجسر: خلع الأحذية من أجل التفتيش، مصادرة الدفاتر، إفراغ محتويات حقائب السفر، تفتيش جسدي، وحتى حفاضات الأطفال الرضع وأدوات الزينة. وحين سأله أحد المحاورين على تلفزيون الجزيرة إن لم يكن شاعراً بالمرارة من أن حلمه بالرجوع قد جعله في موقف يواجه فيه الفلسطينيون مشكلات يومية ويساقون إلى مناطق تسمى ألف وباء وجيم، تفصلهم نقاطُ التفتيش العسكرية الإسرائيلية – أجاب: «لا أشعر بالمرارة مطلقاً. وعلى الأصح، أشعر أن الحضور الإسرائيلي يمثل تحدياً لنا. ومن المستحيل أن نقابل هذا التحدي بالمرارة. إنه حاجز أصارعه؛ فأنا أنادي بالمساواة، أنادي بإزالة نقاط التفتيش كلها... ومهمتنا النضال معاً حتى نغير هذا الواقع. ومجيئي هنا – وجزء كبير منه – كان من أجل تغيير هذا الواقع. فأنا لا أقاتل بعيداً عن ميدان النضال». لقد شعر والدي شعوراً قوياً، عند النهاية، أن الفلسطينيين ارتكبوا خطأً كبيراً في ١٩٤٨ حين هربوا خائفين، مع أنه يعرف – أكثر من غيره – أنهم لم يكونوا ليقدروا على فعل شيء آخر. أنفق والدي حياته وهو يستقصي كل ما يتعلق بهذا التاريخ، ومع هذا كان يقول: «كان من الواجب علينا أن نظل على الأرض، حتى وإن وصل الإسرائيليون. كان من الواجب علينا أن نبقى؛ فالنضال يتطلب مواجهة من خلال أشخاص يقاومون».(١٣)

وقد رأيت بنفسي المواجهة على أرض الواقع: رأيت جنود مكافحة الشغب المسلحين يواجهون أولاداً في سن المراهقة يقذفونهم بالحجارة. لكني رأيت، أيضاً، والدي وهو يقترب من نقاط التفتيش الإسرائيلية يشد من عوده بتوتر مستعداً للمشهد فترتسم ابتسامة متكلفة على وجه هذا الرجل المهذب الذي يُخرج جواز سفره الأمريكي بسرعة حتى يمر. وفيما بعد، جرَّبت بنفسي إسرائيل أثناء مرضه وموته، فكنا لا نقدر على الذهاب إلى أي مكان في الضفة الغربية للحصول على المسكِّنات التي أوصى بها الطبيب الإسرائيلي، وكنا نعاني من ندرة ملصقات المورفين، ناهيك عن طعامه المفضل من البروكلي وسمك السالمون، بينما كان كل هذا يتوافر على «الجانب الآخر». كنا نحتاج إلى سيارة إسعاف للحاق بمواعيد الطبيب خوفاً من نفاد أنبوبة الأوكسجين أثناء سخونة السيارة عند نقطة تفتيش متباطئة. وكان الخوف – ونحن نقترب من نقطة التفتيش – على وجه صديقته المفعم

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

بالحيوية، الإسرائيلية الفلسطينية من الشمال التي تعرف العبرية، وقد جاءت لتساعده على التفاوض مع المستشفى. ولم يكن مسموحاً لها – أصلاً – دخول الضفة الغربية ببطاقة هويتها الإسرائيلية، مع أنها هي وزوجها والأطفال قد عاشوا هناك. ثم المكالمة الهاتفية من الأمن الإسرائيلي، ونحن في ذروة أحزاننا، تهدد ترتيباتنا التي قمنا بها من أجل الجنازة.

إن حقيقة موت والدي الفيزيقية لا تنفصل عندي عن تفاصيل الهيمنة الإسرائيلية: بدءاً من أطراف أصابعه الزرقاء إلى الممرضين الفلسطينيين الذين دفعوه على السلالم إلى سيارة الإسعاف ولم يكونوا متأكدين من السماح لهم بالمرور السريع... بدءاً من المكالمة المتطفلة التي قام بها الضابط الإسرائيلي إلى علم ساكن لفّوه على النعش في مركز جمعية يافا... بدءاً من الشعور بالقلق من المراقبة إلى سخاء مجتمعه الذي يفوق الوصف... بدءاً من مخاوفنا على مصير مذكرة محاضرات ألقينا بها في الزبالة سهواً بينما كنا ننظف شقته إلى الرعب الذي شعرنا به في يوم موحش لم يأت فيه أحد من أصدقائه لزيارته؛ فقد جمعوا أطفالهم من المدرسة مبكراً وجلسوا يشاهدون الأخبار باهتمام ليعرفوا ما إذا كان – أو أين – سيلقي أريل شارون القنابل «انتقاماً» لحادثة ما...

لقد سمعت حكايات والدي على مدى حياتي. أما أن تمشي وأنت شاعر باليتم، تعبُر نقطة تفتيش متربة وحارة، تُسحب فيها حقائبك لمجرد أنهم لا يريدون السماح لأية سيارات فلسطينية بالعبور – فهذا شيء آخر. أن يهاجمك جنود متعجرفون بنظارات شمسية عاكسة وعضلات مفتولة ليؤخروك عن قصد – فهذا شيء آخر. أن تذهب إلى المطار مستقلاً تاكسياً عربياً فى طريقك للحاق بطائرتك، فتجدهم يفتشون السيارة ببطء، ثم يغيبون في الداخل ويطول غيابهم ومعهم بطاقة هوية السائق، فيهينونك بقدرتهم على جعلك تجلس أخرس وأنت تعرف أنك بريء تماماً من أي اتهام – فهذا شيء آخر. وبينما كنت أعبر من الضفة الغربية إلى بر الأمان في القدس حتى ألحق بطائرتي، حضرتني حكايات شق الأنفاق تحت الأرض وهروب العبيد [في الولايات المتحدة] في سبيل الحرية، وتزاحمت في مخيلتي صور اللاجئين المبعدين في الحرب العالمية الثانية وهم يمشون تنوء أكتافهم بحمل ممتلكاتهم. ولكن هذه الصور لا يمكنها أن تتمثل هذا الواقع المتفرد بدمدمته العبرية التي تدَّعي، بعجرفة، حق الامتلاك. الأسلحة والجنود المنتشرون أينما تولِّي وجهَك. الفصل الكامل بين العرب واليهود. هذه التجارب والخبرات التي اكتسبتها بنفسي، أكثر من حكايات والدي، هي التي جعلتني راغبة في

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

الكتابة عن النكبة. ليست الكارثة الفلسطينية أثراً من الماضي: إنها حية في الحاضر، في كل منزل هدمته البلدوزرات الإسرائيلية، ومع كل حريق أشعلته طائرات الأپاتشي، ومع كل إجهاض عند نقاط التفتيش العسكرية، ومع كل قرية تمزّعت حقولها بالجدار «العازل»، ومع كل فلسطيني لا يزال يتوق إلى العودة إلى بيت لم يعد موجوداً.

الهوامش

(١) الرد على ليلى فانوس: لا أعرف السياق.

(٢) امتدت علمانيته إلى اختصار مادة الدين والتعليم الديني في خطته السجالية لمنهج الدراسة الجامعية الوطنية الفلسطينية، وقد رُفضت خطته. راجع الفصل السابع من عمل Hovsepian في ثبت المراجع.

(٣) كل الاستشهادات من حكايات والدي مأخوذة من تسجيلات حوارية باللغة الإنجليزية قام بها هشام أحمد فرارجه. والاستشهادات التي وردت في عمل أحمد فرارجه تشير إلى الصفحة. وبعض الحكايات والمواقف الأخرى توجد في حوار من جزءين مع زكريا محمد. وفي هذا الحوار، يذكر والدي أنه ترك يافا بالمركب في ١ مايو، وليس في ٣ مايو.

(٤) لوصف هذه الزيارات، راجع: Karmi و Tamari and Hammami و Al-Qattan, "Secret Visitations". وعن عودة إدوارد سعيد إلى بيت عائلته، انظر: الفيلم التسجيلي لـBruce. وللاطلاع على عمل عن الأفلام، بما في ذلك فيلم Bruce والمطالبة ببيوت ومنازل، راجع Bishara و Sa'di, "Catastrophe".

(٥) وبخصوص شرح بعض الأساليب التي تم بها المحو وإعادة الكتابة، راجع: Abu El-Haj، Benvenisti.

(٦) وللمزيد عن الغابات، راجع: Bardenstein و Bresheeth و Davis و Slyomovics.

(٧) كانت دير ياسين قرية التزم سكانها بميثاق عدم التعدي مع الهاجانا، ومع هذا، فقد قامت قوة مشتركة من الهاجانا ومن «مقاتلون من أجل حرية إسرائيل» [LEHI وتعرف، أحياناً، بعصابة سترن] بمجزرة في دير ياسين ذهب ضحيتها – على أقل تقدير – ١١٥ رجلاً وامرأة وطفلاً، ثم رميت جثثهم في الآبار (Smith، ص ١٩٤)، والإعلام بهذه المجزرة – من خلال قوات الإرجون والهاجانا بمكبرات صوت متنقلة في مدن مثل يافا وحيفا، ومن خلال الإذاعة العربية – تسبب في ذعر رهيب. وبخصوص دراسة عن أثر مذبحة دير ياسين في الفلسطينيين انطلاقاً من مقابلات مع

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

اللاجئين، راجع: Nazzal. وكما بيّن Morris، لم تكن هذه المجزرة هي الوحيدة التي قامت بها القوات اليهودية. راجع، أيضاً، عمل Abdel Jawad الذي يوثق ثماني وستين مذبحة للفلسطينيين قام بها الصهاينة والقوات الإسرائيلية في عام ١٩٤٨. وقد أقام النحات الجزائري الأمريكي خليل بن ديب نصباً لضحايا دير ياسين في جنيف ونيويورك عام ٢٠٠٣، راجع أيضاً: McGowan and Ellis.

(٨) ولعله يستلهم، هنا، عنوان دراسة قام بها صديقه إدوارد سعيد، ألا وهي: «الصهيونية من منظور ضحاياها» المنشورة في كتاب سعيد عن القضية الفلسطينية، راجع: Said, *The Question of Palestine*.

(٩) يوضح بُصيلة في هامش على القصيدة أن نعلين قرية فلسطينية قام الإسرائيليون بترحيل ستين ألف فلسطيني إليها مشياً على الأقدام في يوليو ١٩٤٨.

(١٠) ويمكن الاطلاع على تفاصيل مخطط «متحف الذاكرة الفلسطينية» في مؤسسة التعاون.

(١١) أشكر روجر هيكوك Roger Heacock على توضيحه دور والدي في فلسطين، أثناء تعليقاته المؤثرة في ورشة «النكبة في الذاكرة الفلسطينية الجماعية»، في الاجتماع السادس للبحث السياسي والاجتماعي المتوسطي ضمن برنامج البحر الأبيض المتوسط، مركز روبرت شومان للدراسات العليا، مؤسسة الجامعة الأوروبية، مونتكاتيني تيرم، إيطاليا، ٢٠٠٥.

(١٢) راجع: Said, "My Guru". وللمزيد عن صداقتهما، راجع: L. Abu-Lughod.

(١٣) لقد أعطاني والدي تسجيل ڤيديو لحوار بدون عنوان، أعتقد أنه كان مع محمد خريشات في برنامج «ضيف وقضية»، قناة الجزيرة التلڤزيونية، وعلى الأغلب كان عام ١٩٩١. وأشكر لوري آلن Lori Allen على تدوينه.

المراجع العربية

درويش، محمود. «إبراهيم أبو لغد: طريق العودة هي طريق المعرفة». رثاء في تأبينه الذي أقيم في رام الله يوم ٢٦ مايو، ٢٠٠١. نشر لاحقاً في مجلة **أخبار يافا**، العدد ١١ (٣١ مايو، ٢٠٠١)، ص ٤.

زكريا، محمد. «عن يافا... والموت... والفرح... والهزيمة... والأمل. أبو لغد: خفت أن أموت دون أن أرى فلسطين فقررت العودة». **الأيام** (٢٥ و٢٦ ديسمبر ١٩٩٥)، ص ١٤ في العددين.

«متحف الذاكرة الفلسطينية: وثيقة المشروع». مؤسسة التعاون، نوفمبر ٢٠٠٠.

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

المراجع الأجنبية

Abdel Jawad, Saleh. "Zionist Massacres: The Creation of the Palestinian Refugee Problem in the 1948 War." *Israel and the Palestinian Refugees*. Eds. Chaim Gans, Eyal Benvenisti, and Sari Hanafi. Berlin: Springer Verlag, 2007. 59-129.

Abu El-Haj, Nadia. *Facts on the Ground: Archaeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israeli Society*. Chicago: U of Chicago P, 2001.

Abu-Lughod, Lila. "About Politics, Palestine, and Friendship. A Letter to Edward from Egypt." *Edward Said: Continuing the Conversation*. Eds. Homi Bhabha and W. J. T Mitchell. Chicago: U of Chicago P, 2005. 17-25.

Ahmed-Fararjeh, Hisham. *Ibrahim Abu-Lughod: Resistance, Exile and Return. Conversations with Hisham Ahmed-Fararjeh*. Birzeit: Ibrahim Abu-Lughod Institute for International Studies, Birzeit University, 2003.

Allan, Diana K. "The Politics of Witness: Remembering and Forgetting 1948 in Shatila Camp." *Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*. Eds. Ahmad H. Sa'di and Lila Abu-Lughod. NY: Columbia UP, 2007. 253-82.

Bardenstein, Carel B. "Trees, Forests, and the Shaping of Palestinian and Israeli Collective Memory." *Acts of Memory: Cultural Recall in the Present*. Eds. Mieke L. Bal, Jonathan Crewe, and Leo Spitzer. Hanover: UP of New England, 1997. 170-81.

Benvenisti, Meron. *Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land Since 1948*. Berkeley: U of California P, 2000.

Bishara, Amahl. "Examining Sentiments about and Claims to Jerusalem and its Houses." *Social Text* 75.21 (Summer 2003): 141-62.

Bresheeth, Haim. "The Continuity of Trauma and Struggle: Recent Cinematic Representations of the Nakba." *Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*. Eds. Ahmad H. Sa'di and Lila Abu-Lughod. NY: Columbia UP, 2007. 161-87.

Bruce, Charles. *In Search of Palestine*. London: British Broadcasting Company, 1998.

Busailah, Reja-e. "The Fall of Lydda." *Arab Studies Quarterly* 3.2 (Spring 1981): 123-51.

Childers, Erskine. "The Wordless Wish: From Citizens to Refugees." *The Transformation of Palestine*. Ed. Ibrahim Abu-Lughod. Evanston, IL: Northwestern UP, 1971. 165-202.

Davis, Rochelle. "Mapping the Past, Re-creating the Homeland: Memories of Village Places in pre-1948 Palestine." *Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*. Eds. Ahmad H. Sa'di and Lila Abu-Lughod. NY: Columbia UP, 2007. 53-75.

Halbwachs, Maurice. *On Collective Memory*. Trans. and ed. Lewis A Coser. Chicago: U of Chicago P, 1992.

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms

Hirsch, Marianne. *Family Frames: Photography, Narrative, and Postmemory*. Cambridge: Harvard UP, 1997.

Hovsepian, Nubar. "Palestinian State Formation, Political Rent, and Education Policy: Development and the Construction of Identity." PhD Diss. City University of New York, 2004.

Humphries, Isabelle and Laleh Khalili. "Gender of Nakba Memory." *Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*. Eds. Ahmead H. Sa'di and Lila Abu-Lughod. NY: Columbia UP, 2007. 207-228.

Karmi, Ghada. *In Search of Fatima: A Palestinian Story*. London/NY: Verso P, 2002.

Lessing, Doris. *African Stories*. NY: Simon and Schuster, 1981.

McGowan, Daniel and Marc H. Ellis, eds. *Remembering Deir Yassin: The Future of Israel and Palestine*. NY: Olive Branch P, 1998.

Morris, Benny. *The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited*. Cambridge: Cambridge UP, 2004.

Nazzal, Nafez. *The Palestinian Exodus from Galilee, 1948*. Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1978.

Nora, Pierre. "Between Memory and History: Les lieux de mémoire." Trans. Marc Roudebush. *Representations* 26 (Spring 1989): 7-24.

Proust, Marcel. *Swann's Way*. Trans. C. K. Scott Montcriff. NY: Dover Publications, 1981.

Al-Qattan, Omar. *Al-'Awda* [Going Home]. Sindibad Films and Café Productions 1995.

_____. "The Secret Visitations of Memory." *Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*. Eds. Ahmad H. Sa'di and Lila Abu-Lughod. NY: Columbia UP, 2007. 191-206.

Sa'di, Ahmad H. "Catastrophe, Memory and Identity: Al-Nakbah as a Component of Palestinian Identity." *Israel Studies* 7.2 (2002): 175-98.

_____ and Lila Abu-Lughod, eds. *Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*. NY: Columbia UP, 2007.

Said, Edward. *The Question of Palestine*. NY: Vintage Books, 1979.

_____. "My Guru." *London Review of Books* 23.24 (December 2001): 19-20.

Sayigh, Rosemary. "Women's Nakba Stories: Between Being and Knowing." *Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*. Eds. Ahmad H. Sa'di and Lila Abu-Lughod. NY: Columbia UP, 2007. 135-58.

Slyomovics, Susan. "The Rape of Qula, a Destroyed Palestinian Village." *Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*. Eds. Ahmad H. Sa'di and Lila Abu-Lughod. NY: Columbia UP, 2007. 27-51.

Smith, Charles. *Palestine and the Arab-Israeli Conflict*. Boston: Bedford/St. Martin's, 2004.

Tamari, Salim and Rema Hammami. "Virtual Return to Jaffa." *Journal of Palestine Studies* 27.4 (Summer 1998): 65-79.

This content downloaded from 82.212.126.201 on Fri, 02 Jan 2026 16:10:20 UTC
All use subject to https://about.jstor.org/terms